الرعاية والخدمات الاجتماعية في عصر النبوة ودور المرأة المسلمة فيها.

إعداد: الدكتور ليث سعود جاسم
أستاذ التاريخ الإسلامي المساعد بالجامعة
الإسلامية العالمية – ماليزيا
قسم القرآن والسنّة

توطئة:

إن التاريخ الإسلامي يمثل حركة هذا الدين في واقع الحياة. ويعكس لنا صورة التفاعل ما بين تعاليم هذا الدين الرباني والإنسان والكون والحياة، وثمرة هذا التفاعل هي تلك الحضارة الحية المعطاءة النامية نمو حاجات الإنسان. الملبية مطالب الفطرة المتناغمة مع أشواق الإنسان في كل حال وحقبة.

والجانب الاجتماعي الذي جعل الإسلام صياغته على ضوء التعاليم الربانية هدفاً لا زال يحتاج إلى التجلية وحسن العرض؛ لتستكشف عملية صياغة هذا الواقع من خلال الرصيد التاريخي التراكمي الذي يعد ثروة للأمة المسلمة، لم تنل مثله غيرها من الأمم، وبخاصة في جوانب الرعاية الاجتماعية والخدمات، والأخص من ذلك هو إسهام المرأة المسلمة في هذا الجانب الحيوي الذي يوضح لنا الأداء الحقيقي للمرأة وأنماطه الاجتماعية، وهذا حقل لا زال الكثير في غفلة عنه إن لم يكن متهماً إياه بتحجيم دور المرأة؟ لأن المتجاوز ينظر من زاوية ضيقة، ونظرة غير شاملة.

وقد توفر هذا البحث لعرض الجانب وبخاصة فيما يتعلق بالرعاية والخدمات

الاجتماعية منطلقاً من مفهوم العمل الصالح، والحقائق الكونية والشرعية المتعلقة بالمرأة والرجل، وحركتهما في الحياة بالمنهج الرباني.

ولما كان العصر النبوي هو العصر القدوة في إنزال الإسلام على الواقع وتحققت فيه حركة الإنسان المنضبطة بضوابط الشرع، لذا فلا نستطيع أن نفهم النظام الاجتماعي الإسلامي، ودور المرأة في ممارسة الحياة في ضوء تعاليمه إلا من خلال التوجيهات النبوية والسيرة المحمدية، وتحرك المرأة المسلمة على هديهما في طلب العلم، والنشاط الاجتماعي، والرعاية الاجتماعية، في الأفراح أو الأتراح وفي الجد أو المرح وفي القتال أو الإنشاد. مما يعطينا صورة وضاءة عن العصر النبوي تتمثل مثالاً يُحتذى، ونموذجاً يطبق في عالم الواقع.

وقد قُسم البحث إلى مقدمة: تتضمن مفهوم العمل الصالح، وأهمية البحث التاريخي لرصد العمل الاجتماعي، ومفهوم الرعاية والخدمة الاجتماعية وتعريفاتهما ومقارنتهما بالمنهج الغربي. ثم قيام دولة الإسلام في المدينة المنورة ومؤسساتها المنطلقة من المسجد والمرتبطة به، مثل: مؤسسة المسجد وأعمالها، والمؤسسة التعليمية ومظاهرها، والمؤسسة الاجتماعية وتفرعاتها وأعمالها وما يتعلق بها من نشاطات متنوعة.

ثم بيان دور المرأة الحضاري في الرعاية والخدمات الاجتماعية ومحاوره:

المحور الأول: تضمن الكلام عن: إنشاء وتفعيل مؤسسات الرعاية والخدمات الاجتماعية وأنشطتها.

المحور الثاني: تمويل المشروعات المؤسسية الاجتماعية وغيرها، ثم ثمرة دور المرأة في الخدمات الاجتماعية في عصر النبوة وأهميته في واقع الدراسات الاجتماعية المعاصرة، وتلمّس الضوابط في الممارسات الاجتماعية، وأنماط العمل

الاجتماعي في تلك الحقبة المبكرة التي تعد مرحلة، وضع الأسس والمبادئ العامة للعمل الاجتماعي، فضلاً عن الشروع في بناء المؤسسات بصورة متدرجة من خلال الواقع وحاجاته.

وأسأله تعالى أن يكون هذا البحث فيه جدة في عرض مادته، وتبويب مفرداته لتقديم هذه الخبرة الاجتماعية، والرصيد التاريخي الغني الثرّ بين يدي المهتمين من الخبراء الاجتماعيين والدعاة المصلحين والدارسين لهذه الحضارة، التي اكتسبت حياتها من شريعة الحي القيوم اللطيف الخبير: ﴿أَلاَ يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

مقدمة:

إن الحضارة الإسلامية هي ثمرة تفاعل الإسلام مع الإنسان والكون والحياة، ولذلك فإن العطاء الحضاري في الحضارة الإسلامية معينه لا ينضب، وعطاؤه لا ينفد؛ لأنه يستمد بقاءه من مصدرية ربانية في مصادرها وأصولها، جعلت الإنسان هو مدار الرسالات السماوية جميعها، والتي استمرت تنتقل بهذا الإنسان عبر دورات حضارية تتنامى وتوازي نمو المجتمع البشري، ونضوج الإنسان الفكري، والنفسي فلذلك كان القرآن هو مختتم الكتب السماوية، والذي ضم وحي الله المتضمن لبيان التصور لعلاقة الإنسان بالله تعالى والكون والحياة.

وكانت نبوة المصطفى ﷺ هي خاتم النبوات، ورسالته هي الرسالة الخاتمة، قال تعالى: ﴿رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ﴾ [الأحزاب: ٤٠]، وكان دينه خاتم الأديان، قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِناً عَلَيْهِ﴾ [المائدة:٤٨]، وقوله تعالى: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلاَمِ دِيناً فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ

﴿فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [آل عمران:٨٥].

فلذلك جاء هذا الدين -الإسلام- متضمناً المبادئ، والأسس التي تقوم عليها الحضارة الخاتمة التي جعلت الإنسان هو العنصر البناء الرئيسي في عملية البناء الحضاري: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة:٣٠].

وقرن المنهج الرباني بين حركة المرأة وحركة الرجل في تنمية المجتمع وبناء الحضارة، وجعل مظاهر هذه الحركة متنوعة فمنها ما هو خاص بالرجل، ومنها ما هو خاص بالمرأة، ومنها ما هو مشترك بينهما[١].

ولذلك قال ﷺ: (إنما النساء شقائق الرجال)[٢] في الخَلْق، والتكليف ومنزلة التكريم الإنساني، قال تعالى: ﴿ فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لاَ أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنْكُمْ مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى بَعْضُكُم مِّن بَعْضٍ﴾ [آل عمران:١٩٥]. وأوصى بهن رسول الله ﷺ بقوله: (استوصوا بالنساء خيراً...)[٣].

وبين لهم حقيقة كونية بقوله: ﴿وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالأُنْثَى﴾ [آل عمران:٣٦]، وبقوله تعالى: ﴿وَلاَ تَتَمَنَّوْاْ مَا فَضَّلَ اللّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبُواْ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبْنَ وَاسْأَلُواْ اللّهَ مِن فَضْلِهِ إِنَّ اللّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً﴾ [النساء:٣٢].

---

(١) أستاذنا الدكتور عبدالكريم زيدان، ((المفصل في أحكام المرأة والبيت المسلم))، نشر مؤسسة الرسالة -بيروت، (١٤١٣هـ)-(١٩٩٣م)، ط١، (٦/١).

(٢) رواه أبوداود عن السيدة عائشة رضي الله عنها، انظر ((مختصر سنن أبي داود)) للحافظ المنذري، تحقيق أحمد محمد شاكر ومحمد حامد الفقي: (١٦١/١)، وانظر ((صحيح الجامع الصغير للسيوطي))، حديث رقم (٢٣٢٩).

(٣) البخاري:((الجامع الصحيح))، (١٤٥/٦)، نشر المكتبة الإسلامية، استانبول - تركيا، (١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م)، ط١.

فلا يتمنى الرجل ما خُصّت به المرأة من طبيعة في الخِلقة، فلا يجوز التشبه بها لأن ذلك مخالف للفطرة وللوظيفة التي هيأه الله لها وزوّده بمستلزماتها، وكذلك المرأة ليس لها ذلك لخصوصيتها والوظيفة التي هيأها الله لها.

ويتناول النهي عن التمني كذلك باب التشريعات التي خُصّت بها المرأة، أو التي خُصّ بها الرجل، لأن الحياة لا تقوم إلا بهذا التنوع في التخصص والتنوع في طبيعة التكاليف التي كُلّف بها كلٌ من الجنسين المرأة والرجل.

العمل الصالح:

وقد حث الله جل وعلا الرجال والنساء على (العمل الصالح) بما يتسع له هذا المصطلح من معاني، والذي جعله مقترناً بالإيمان دائماً فهو ثمرة له، ولذلك وردت آيات كريمة في معان متنوعة تخاطب المؤمنين مبينة لهم منزلتهم إذا جمعوا بين الإيمان والعمل:

- فوجه لهم تعالى الخطاب بأنه لا يضيع لهم عملاً بقوله:

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ إِنَّا لاَ نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلاً﴾ [الكهف: ٣٠].

- ووعدهم بالاستخلاف والتمكين بقوله تعالى:

﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ امَنُواْ مِنْكُمْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً.. الآية﴾ [النور: ٥٥].

- وبشرهم بالجنة بقوله تعالى:

﴿ وَبَشِّرِ الَّذِين آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا

الأَنْهَارُ... الآية﴾ [البقرة:٢٥].

- وبين بأن العاملين بحسب ما شرع الله هم والتزامهم بذلك قلة دائماً، بقوله تعالى:

﴿ إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ... الآية﴾ [ص:٢٤].

وأما النبي ﷺ فإنه حث على العمل الصالح بقوله: (ما أكل أحد طعاماً قط خيراً له من أن يأكل من عمل يده، وإن نبي الله داود كان يأكل من عمل يده)[١].

وقوله ﷺ: (والذي نفسي بيده لأن يأخذ أحدكم حبله فيحتطب على ظهره خير له من أن يسأل الناس)[٢] رواه البخاري.

والنشاط الاجتماعي وخدماته والعمل الإغاثي والطبي مَعلم مهم في حضارتنا الإسلامية، ويشمل جانباً مهماً من العمل الصالح بمفهومه العام، وقد زخر تاريخنا بنماذج تطبيقية رائدة في هذا المجال، أخذت مظاهر متعددة وأشكالاً متنوعة أسهمت إسهاماً فعالاً في توظيف الطاقات البشرية؛ لبناء المجتمع المسلم وحضارته السامقة بل الإنسان عامة.

وكان للمرأة المسلمة دورٌ متميزٌ في ممارسة العمل، يُكمّل دور الرجل بل يسبقه في بعض التخصصات التي خُصّت بها المرأة، وذلك لما تمتاز به المرأة من استعدادات وإمكانات، وقدرات وسمات شخصية ونفسية وعاطفية مختلفة عن الرجل[٣]، وهذه

---

(١) البخاري، (٢/١٣٢)، طبعة المكتبة الإسلامية - تركيا.

(٢) ابن حجر العسقلاني: «فتح الباري شرح صحيح البخاري»، المطبعة السلفية، القاهرة، (٤/٣٠٣)، البخاري: (٢/١٢٩)، طبعة المكتبة الإسلامية - تركيا.

(٣) سليمان بن علي العلي، «تنمية الموارد البشرية والمالية في المنظمات الخيرية»، نشر مؤسسة أمانة، الولايات المتحدة الأمريكية، (١٤١٦هـ - ١٩٩٦م)، ط١: (٩٣-٩٤)، نقلاً عن دكتور محمد عثمان الخشت في كتابه «ليس الذكر كالأنثى»، نشر مكتبة القرآن - القاهرة، (١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م): (٥٩-٦٠).

السمة وإن كان يتصف بها الرجال أيضاً، ولكن المرأة تمتاز بكونها تستقبل المؤثرات الايحائية، وترحب بها أكثر من الرجل. وقد أثبتت التجارب[1] المختبرية ذلك حيث أن حواء إذا تعرضت لأي مؤثر فإن مناطق الإدراك والقرار في المخ تشترك معها منطقة العاطفة؛ استجابة للدافع الخارجي الذي يتطلب منها اتخاذ قرار معين أو القيام بسلوك معين، وأما الرجل فاستجابة منطقة القرار في مخّه لا تشترك معها منطقة العاطفة، وبالتالي يكون التأثير العاطفي أقل في القرار. وصدق الله تعالى: ﴿وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالأُنْثَى﴾ [آل عمران:٣٦].

لذلك فالمرأة هي أشد استجابة من الرجل في مجالات العمل الخيري والاجتماعي، وأقدر على التعامل مع مؤسساته فضلاً عن تأثيرها في استثارة العواطف للعطاء لما جبلت عليه من العطف والرحمة.

أهمية البحث التاريخي في رصد العمل الاجتماعي وتأصيله في المجتمع الإسلامي:

إن التصور الإسلامي للطبيعة البشرية وللسنن النفسية والاجتماعية ولأسباب المشكلات الفردية لم تتم خدمته، حتى الآن بطريقة منظمة تصلح للاستفادة منها

---

(١) قامت جامعة يال في الولايات المتحدة بهذه التجربة في كلية الطب وأكد الباحثان سالي شاويتز وزوجها بيت «أن دماغ الرجل يختلف عن دماغ المرأة في شكله وطريقة عمله» وقد استخدم العلماء أجهزة التصوير الإشعاعي الطبقي والرنين المغناطيسي لتحديد المواقع والأجزاء التي يزداد نشاطها داخل الدماغ أثناء القيام بتلك المهام الفكرية ولاحظ العلماء أن الجانب الأيسر من الدماغ المختص باللغات والمنطق والرياضيات أضاء وكأنه منطقة لاس فيجاس عند الرجال والنساء على السواء. إلا أن دماغ النساء أضاء في منطقة إضافية في الجانب الأيمن المختص بالعواطف والأحاسيس ما يدل على أن المرأة تعتمد على عواطفها وأحاسيسها وإبداعها إضافة إلى المنطق أثناء تحديد أو اختيار الكلمات. انظر الوسط، العدد: (١٦٩)، سنة (١٩٩٥م) الشهر الرابع إبريل.

بشكل مباشر في صياغة نظريات الممارسة في الخدمات الاجتماعية والإغاثية، ونحن أحوج ما نكون اليوم إلى بلورة ذلك التصور، وصياغته صياغة تجمع بين القيم والمبادئ الإسلامية والتطبيقات المحققة واقعياً لتكوين نظرية الممارسة[(١)].

والبحث التاريخي رافد مهم في رصد حركة تفاعل القيم والمبادئ مع واقع الحياة وتنميتها، وبالتالي إعطاء صورة عن أسس علم الاجتماع ومؤسساته وتطورها لخدمة المجتمع الإسلامي.

«فمنذ ظهور الحضارات على وجه الأرض ظهرت أشكال من الرعاية الاجتماعية ارتبطت بنوع الحضارة وأسلوب الحياة فيها، كما إزداد تطور الرعاية الاجتماعية بظهور الأديان السماوية، ويعزو (جلبرت) و(سبكت) نشوء الرعاية الاجتماعية تاريخياً: إلى أن الأنظمة الاجتماعية التقليدية وبصفة أساسية الأسرة والدين كانت تقوم بإمداد العون كوظيفة ثانوية لها»[(٢)].

ولقد تولد عن هذا التفاعل بين النشاط الاجتماعي والنشاط الديني في الغرب ما أسفر عن ميادين وأنشطة متعددة سميت بالخدمة الاجتماعية اليهودية، والخدمة الاجتماعية البروتستانتية بل لقد أصبح لها مدارسها وكلياتها المستقلة الخاصة بتخريج الإخصائيين الاجتماعيين؛ ليعملوا في الجانب الديني فقط، ولقد بلغت هذه المدارس والكليات في الولايات المتحدة الأمريكية وكندا حتى عام (١٩٦٠م) تسع

---

(١) د. إبراهيم عبدالرحمن رجب، «مفهوم التوجيه الإسلامي للخدمة الاجتماعية»، بحث ألقي ضمن مجموعة بحوث ندوة التأصيل الإسلامي للعلوم الاجتماعية، من ٥ إلى (٦/٦/١٤٠٧هـ)، أنظر مكتبة المستلات، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، حزمة رقم (١٧)، الخدمة الاجتماعية، (١٤١٤هـ - ١٩٩٣م).

(٢) Neil Gelbert and Hary Specht, Dimen Sience of Social Welfare Policty, N.Y., Predntece Hall, p.9، نقلاً عن د. الفاروق زكي يونس، «سياسة الرعاية الاجتماعية من منظور إسلامي، دراسة مقارنة»، بحث مقدم إلى ندوة التأصيل الإسلامي للخدمة الاجتماعية، القاهرة، (١٠-١٣/٨/١٩٩١م).

مدارس للخدمة الاجتماعية الكاثوليكية وحدها..![1]

وإذا كانت تلك هي الصورة التي توجد عليها الخدمة الاجتماعية على المستوى العالمي والديني، فلا غرابة في مجتمعنا بأن تهتم الخدمة الاجتماعية بالدين الإسلامي، وإفادة المجتمع الإسلامي بحل مشكلاته وتحقيق أهدافه بما يمكن أن تقدمه من طرق وأساليب علمية[2].

وسنسلط الضوء في هذا البحث على الجانب العلمي التطبيقي؛ لدور المرأة المسلمة في الرعاية والخدمات الاجتماعية في ضوء الرصيد التاريخي لتجارب الحضارة الإسلامية وبخاصة في عصر النبوة؛ لنستقرأ من خلالها أسس العناية بالإنسان فردياً وجماعياً ضمن عمل مؤسسي قائم على قيم ومبادئ الإسلام؛ لأن القيم في العمل الاجتماعي تعتبر العنصر الرئيسي الذي به نفهم النظم الاجتماعية، ونفهم به أيضاً الشخصية لأن القيم كما يقول لوينبرج (lOEWENBARG) تؤثر بشكل أساسي وفعال في التصورات والمعتقدات والأفعال، سواء بالنسبة للأفراد أو المنظمات، وكذلك يعتبرها وليم جوردن (William Jordan) وويستر[3].

وأما المبادئ التي تقوم عليها الخدمة الاجتماعية كما يرى فريدلاندر (Walter Friedlander) فهي: (خدمة الفرد –خدمة الجماعة– تنظيم المجتمع)[4]، والتي

---

(١) د. محمد أحمد عبدالهادي، الخدمة الاجتماعية الإسلامية: ٤، نشر مكتبة وهبة، القاهرة، (١٤٠٩هـ - ١٩٨٨م)، الطبعة الأولى.

(٢) انظر المصدر السابق.

(٣) Loewenberg F.M., Fundamentels of Social Intervention, Colombia University Press,1983, P.P 30-33 نقلاً عن د. محمد أحمد عبدالهادي: ((الخدمة الاجتماعية الإسلامية))، (ص٥٢-٥٣).

(٤) د. محمد أحمد عبدالهادي: ((الخدمة الإجتماعية))، (٦٢).

توصل إليها الغربيون سنة ١٩١٧م.

ويقول فريدلاندر: «إن هـذه القيـم لم تنشـأ بالصدفـة كنبـات بـري علـى جـانب الطريق، بل إن لها جذوراً تضرب في أعماق خصبة ذات طبيعة حضارية»[١].

وأما المبادئ والقيم الاجتماعية التي جاء بها الإسلام لبنـاء الفـرد والمجتمـع، فقـد استقرت منذ سنة (٦٢٢م)، وهي السنة الأولى من الهجرة إلى المدينـة وبنـاء الدولـة الإسلامية ومؤسساتها بينما بدأت في الغرب بعد ذلك بمدة طويلة، فقد بدأت أوربـا بعد أكثر من عشرة قرون من نزول القرآن أي سنة (١٩١٧م) تفكـر في أن الفـرد له حق على المجتمع[٢].

تعريف الخدمة الاجتماعية:

«هي واجـب إنسـاني تحـث عليـه جميـع الأديـان ويمارسـها الإنسـان لمعونـة أخيـه الإنسان»[٣].

أو هي: «مهنة لها أسلوبها المتميز عن المهن الأخرى القائمة في المجتمع لأنها تنظـر إلى الإنسان من زوايا متعددة كفرد ومواطن وكعضو في جماعات، وكعنصر منتم إلى مجتمعات، وتقوم بدراسة العوامل المؤثرة فيـه سـواء أكـانت نفسـية أو اقتصاديـة أو صحية أو روحية أو اجتماعية»[٤].

ويقصد بها كذلك: مجموعة من الخدمات والنظم التي تستهدف مساعدة الأفـراد

---

(١) نفس المصدر السابق، (١٢).

(٢) أنور الجندي، «القيم الأساسية للفكر الإسلامي والثقافة العربية»، مطبعة الرسالة، (دون تاريخ).

(٣) د. محمد نجيب توفيق يونس، «أضواء على الرعاية الاجتماعية في الإسلام»: (٤٧). نشر مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، (١٤٠٤هـ -١٩٨٤م).

(٤) نفس المصدر والصفحة.

والجماعات؛ للوصول إلى مستوى لائق من المعيشة، وممارسة العلاقات الاجتماعية التي تمكنهم من تنمية قدراتهم الكاملة لتحقيق احتياجاتهم في المجتمع[1].

أو هي: الجهود والبرامج والخدمات العلاجية والوقائية والإنسانية المنظمة التي تتولاها المؤسسات الحكومية والأهلية والدولية؛ لمواجهة حاجات الأفراد الضرورية المالية والمستقبلية؛ ليتحقق لأفراد هذا المجتمع النمو والرخاء الإنساني والوصول إلى حياة أفضل[2].

وأما تعريفها في المفهوم الإسلامي – حسب رأيي– فهي: مجموعة القيم والمبادئ والوسائل والمؤسسات التي تسهم في عملية التغيير الاجتماعي وتنمية الإنسان، وحل مشكلاته في ضوء المنهج الإسلامي الشامل لجميع جوانب الحياة.

ويمكن تعريفها كذلك بأنها: استخدام طرق الخدمة الاجتماعية (المعاصرة) ذاتها بوسائلها وأساليبها (المشروعة) في تحقيق أهداف الدين الإسلامي[3].

قيام دولة الإسلام في المدينة المنورة ومؤسساتها:

وبعد معاناة الدعوة في مكة كانت النقلة الجديدة في تاريخ الإسلام الهجرة إلى المدينة المنورة إيذاناً بقيام الدولة، وما أن احتضنت قلوب أهل المدينة وربوعها رسول الله ﷺ، حتى بدأ من أول يوم يضع النموذج الحضاري الإسلامي الذي بلورت مكة أطره العقدية والأخلاقية، فكانت المؤسسات هي أول ثمرة لذلك، وهي:

---

(١) نفس المصدر، (٥٠).

(٢) نفس المصدر، نقلاً عن:

UNITED NATION DEPARTMENT OF SOCIAL AFFAIRS: TRAINING FOR SOCIAL WORK, AN INTERNATIONAL SURVEY 1966.

(٣) د. محمد أحمد عبدالهادي: ((الخدمة الاجتماعية الإسلامية))، (٢٠)، ما بين الأقواس (تصرف مني).

١- وضع دستور ينظم حياة الناس في المدينة فكتبت الوثيقة لتحديد الحقوق والواجبات[١].

٢- تحديد معالم وأسس النظام الاجتماعي الذي يربط بين أفراد الأمة الواحدة، فجعل الرسول ﷺ نظام المؤاخاة ورباط العقيدة: هو الرابطة الاجتماعية بين أفراد المجتمع الإسلامي الوليد، فولدت فكرة الأمة الواحدة[٢].

٣- بناء المؤسسات وهذه سمة أخرى تميزت بها الدولة الإسلامية، فهي دولة مؤسسة من أول يوم، وأولى هذه المؤسسات هي:

أولاً: مؤسسة المسجد: كان المسجد مؤسسة دينية - سياسية - اجتماعية - عسكرية - تعليمية... إلخ. فهو بؤرة المجتمع الإسلامي الجديد فكان مؤسسة شاملة تُمارس فيها كثير من النشاطات وبخاصة الاجتماعية منها، وقامت المؤسسات الأخرى إما ملحقة به، أو قريبة منه، فحرم المسجد وساحته كانتا مسرحاً لنشاطات عدة ستتبين لنا من خلال الكلام عن المؤسسات الأخرى.

ثانياً: المؤسسة التعليمية: وهذا الجانب يشير إلى عظمة هذا الدين وبعده الحضاري، وقد تقاسمت هذا الدور عدة مؤسسات لتمارس العملية التعليمية وهي:

أ- المسجد النبوي: فبالإضافة إلى كونه مكاناً للعبادة فقد كان مركزاً لحفظ القرآن وتحفيظه، ومنطلقاً للدعوة، ومؤسسة للتعليم من خلال حلقات العلم والتعليم، وقد بوّب البخاري (باب الحِلَق والجلوس في المسجد) مما يدل على مشروعيتهما وأهميتهما، وذكر ذلك كذلك في (باب ذكر العلم والفتيا في المسجد)[٣].

---

(١) أستاذنا الدكتور أكرم العمري، «السيرة النبوية الصحيحة»: (٢٧٢-٢٩٢) نشر مركز بحوث السنة والسيرة بجامعة قطر، (١٤١١هـ-١٩٩١م)، ط١.

(٢) نفس المصدر، (٢٤٠-٢٥٥).

(٣) البخاري: «الجامع الصحيح»، طبعة تركيا، (٤٣/١)، وانظر العلامة عبدالحي الكتاني، «التراتيب الإدارية»، (٢١٧/٤-٢٢٠)، نشر دار الكتاب العربي، بيروت - لبنان، (بدون تاريخ).

ب- **دار القُرّاء**[1]: كان مؤسسة متخصصة لإقراء القرآن، وحفظه وتجويده، وكان مكانها في دار مخرمة بن نوفل[2]، وتولى الإشراف على إدراتها والتدريس فيها الداعية الأول في المدينة مصعب بن عمير، الذي كان يعلم القرآن في بداية الأمر في بيوت الأنصار، حيث كان يتنقل بينها في أول هجرته إلى المدينة حتى خصص لها هذا البيت، وكان يساعده في التدريس عبدالله بن أم مكتوم الذي التحق بهذا المعهد المتخصص بعد غزوة بدر. وكان من أوائل روادها النقباء الاثني عشر[3] الذين بايعوا ببيعة العقبة الأولى وغيرهم، حيث أعدت هذه المؤسسة متخصصين في هذا الجانب؛ لتلبية حاجة الدولة الناشئة إلى كوادر تعليمية للمسلمين في المدينة وخارجها، أمثال عبادة بن الصامت الذي تولى مهمة تعليم أهل الصُّفّة القرآن[4] وغيره من الصحابة.

ج- **الصُّفة:** موضع مظلل في آخر مسجد المدينة[5]، وهي صُفّتان:

- **صُفّة الرجال:** دكة مسقوفة في آخر المسجد بناها رسول الله ﷺ بعد تحويل القبلة في (١٥ رجب ٢هـ)، حيث بقي جدار القبلة الأولى في آخر المسجد الشمالي، فسقفه رسول الله ﷺ لإيواء المهاجرين الجدد العزاب منهم، والمتزوجين الذين لم تلحق بهم أسرهم بعد، ومن يقدم من أنحاء الجزيرة ممن لا عريف له، والمتفرغين

---

(١) ابن عبد البر القرطبي، ((الاستيعاب بهامش ((الإصابة))، طبعة السعادة، ١٣٣٨هـ، القاهرة، تصوير دار إحياء التراث - بيروت، (٢/٢٥٩-٢٦٠)، ((تخريج الدلالات السمعية)): (٨٠)، لأبي الحسن علي بن محمد الخزاعي التلمساني، نشر المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، القاهرة، (١٤٠١هـ - ١٩٨١م) الطبعة الأولى.

(٢) وهو والد المسور بن مخرمة، توفي سنة (٥٤هـ) وعمره: (١١٥) سنة، ابن حجر: ((الإصابة))، طبعة دار إحياء التراث، (٣/٣٩٠).

(٣) الكتاني: ((التراتيب الإدارية))، (٢/٥٦)، ((تخريج الدلالات السمعية))، (٦٦،٧٨).

(٤) الخزاعي، ((تخريج الدلالات السمعية))، (٦٥)، الكتاني، ((التراتيب))، (١/٤٠)، أستاذنا د. أكرم العمري، ((السيرة))، (١/٢٥٨)..

(٥) ابن منظور، ((لسان العرب))، طبعة دار المعارف، القاهرة، (٣/٣٤٦٣).

للعلم والعبادة، أو الضيوف ممن لا مأوى لهم[١].

وكان الذي يتولى مهمة تعليم أهل الصفة عبادة بن الصامت، فكان يعلمهم القرآن والقراءة والكتابة، وأما عبدالله بن سعيد بن العاص فكان ممن يعلم الناس الكتابة بالمدينة وكان كاتباً محسناً اشتهر بذلك[٢].

وعلى ضوء هذا كله فصُفَّة الرجال كانت تقوم بدور رائد في نشر القراءة والكتابة بين طبقات المجتمع المدني. إضافة إلى تعليم الفقه والفتوى والتي كان يدربهم عليها رسول الله ﷺ.

صُفَّة النساء: وهي سقيفة أخرى خاصة بالنساء في المسجد النبوي[٣]، وكانت تجتمع فيها مجموعة من النساء قد تخاللن وتآخين وتعاهدن فيما بينهن على القيام ببعض أعمال البر المفيدة النافعة. ومنها: النواحي التعليمية حيث طلبن من الرسول ﷺ أن يخصص لهن يوماً؛ لتعليمهن دينهن بعد أن غلبهن الرجال على ذلك، فاستجاب لهن ﷺ، وجعل لهن يوماً على حدة[٤].

وإضافة إلى هذا التعليم الجماعي فقد كان هناك تعليماً فردياً[٥]، ندب إليه رسول

---

(١) انظر الكتاني، (١/٤٠، ٤٧٤-٤٨٠)، والعمري، ((السيرة الصحيحة))، (١/٢٨٥، ٢/٣٥٠)، والعريف: هو مسئول عن قبيلة أو عائلة، أو مجموعة ما يعرف افرادها وأحوالهم، ويكون هو الصلة بين النبي ﷺ والرعية، يحمل إليهم الأوامر الصادرة من رسول الله وفي تفس الوقت يحمل اقتراحات مجموعته إلى النبي ﷺ، ((تخريج الدلالات السمعية))، (٢٥٠).

(٢) الخزاعي، ((تخريج الدلالات السمعية))، (٧٠).

(٣) أستاذنا العمري، ((السيرة النبوية الصحيحة))، (١/٢٥٨، ٢/٤٤٨)، والنسائي: (٨/٧٧) نشر مكتب المطبوعات الإسلامية - حلب، (١٤٠٩هـ - ١٩٨٨) ط٣، بعناية وفهرسة الشيخ الدكتور عبدالفتاح أبوغدة رحمه الله.

(٤) البخاري:((الجامع الصحيح))، (باب هل يجعل للنساء يوماً على حدة)، (١/٣٤)؛ وانظر الكتاني ((التراتيب الإدارية))، (٢/٢٣٥).

(٥) البخاري، نفس المصدر، (١/٣٢،٣٤)، الكتاني، (٢/٢٣٥).

ا لله منها حثه على تعليم المسلمين بعضهم البعض، كما طلب رسول الله من الشفاء تعليم حفصة رضي الله عنهما[1].

ثالثاً: المؤسسة الاجتماعية: «الإنسان اجتماعي بطبعه»[2] كما يقول ابن خلدون، وهو لا يستطيع أن يعيش وحده، لذلك فإضافة إلى الرباط الاجتماعي الذي ربط به الإسلام بين أفراد المجتمع المسلم؛ فإن الحكومة الإسلامية من واجبها القيام بتوفير الخدمات والنشاطات الاجتماعية وتشجيعها، انطلاقاً من شمولية الإسلام لجميع أنشطة الإنسان في المجتمع.

ولذلك كانت المؤسسات الاجتماعية تتنوع بتنوع الأنشطة، وبحسب متطلبات تلك المرحلة المبكرة، وبعض هذه المؤسسات كان مرتبطاً بالمسجد، والقسم الآخر خارج المسجد وهي كالآتي:

١- المؤسسات المرتبطة بالمسجد:

أ- صُفّة الرجال (مؤسسة الرعاية الاجتماعية الشاملة):

وقد أنشأها رسول الله ﷺ بعد تحويل القبلة، حيث استفاد من وجود حائط القبلة الأولى لتهيأه مكان مناسب للنشاط الاجتماعي، فأعدَّ هذا المكان للقيام بخدمات اجتماعية منوعة ذكرناها سابقاً. وكان للصفة مسؤول يسمى (عريفاً)[3] يشرف عليها ويدير شؤونها ويكون مسؤولاً أمام رسول الله ﷺ عنها وعن أصحابها، والمعرفة بنشاط الصفة وأحوالها. وبالتالي فقد كانت الصفة هي المؤسسة الاجتماعية الرئيسية بعد المسجد، وكانت تقوم بعدة نشاطات وخدمات اجتماعية منها:

---

(١) الخزاعي، «تخريج الدلالات السمعية»، (٧١).

(٢) ابن خلدون: «المقدمة»، تحقيق علي عبدالواحد وافي، طبعة دار نهضة مصر، القاهرة، (١٩٧٧، ١/٣٣٧).

(٣) عريف بمعنى عارف، وهو شاهد القوم وعارفهم وضمينهم، تخريج الدلالات، (٢٥٠).

الإيواء: فكانت داراً للضيافة لكل مـن يقـدم[1] من مكـة وغيرهـا، ممـن لا يجـد مكاناً يأوي إليه وكان روادها يسمون بـ (أضياف الإسـلام) أو بـ (الأوفـاض)[2] أي الأشخاص من قبائل مختلفة.

التعليم: وذلك بتعليم الواردين إليها والملتحقين بها القراءة والكتابـة، والعلـوم الشرعية. فكان رسول الله ﷺ يلقي عليهم المواعظ ويعلمهم أمـور دينهـم؛ ولذلـك فمن أشهر الذين اختصوا بمرافقـة رسـول الله ﷺ منهـم، وأخـذ الحديـث عنـه هـم: أبوهريرة رضي الله عنه، وحذيفة بن اليمان رضي الله عنه، المتخصص في أحـاديث الفتن[3].

- **أنها مركز لتحفيظ القرآن:** حيث كلف رسـول الله ﷺ عبـادة بـن الصـامت؛ ليكون أستاذاً لتعليم القرآن في المؤسسة الاجتماعيـة، وكـان رسـول الله يشـجعهم على حفظ القرآن ويعدهم بحسن الثواب[4].

- أنها محضن تربوي: حيث كان النبي ﷺ يحث أهل الصفة علـى الـتزهد والتقلـل من أمور الحياة العامة، ويوجههم إلى أن يأخذوا أنفسهم بالاخشيشان وعـدم سـؤال أحد من المسلمين، فكانوا يصبرون على ما يصيبهم مـن جـوع ونصـب وحرمـان في المأكل والملبس، لا لحاجة وإنما لإعداد نوعية مخصوصة؛ لتكون قدوة لغيرها، ولذلك كان ضمن من تفرغ لهذه الدورات التربوية مجموعة من الأنصار من المدينة نفسـها،

---

(١) انظر السخاوي، ((رجحان الكفة))، (مخطوط)، انظر (٨٩)، ((السـيرة النبويـة الصحيحـة))، أسـتاذنا د. أكـرم العمري، وانظر الكتاني، ((التراتيب))، (٤٧٤/١).

(٢) انظر السخاوي، ((رجحان الكفة))، لوحة (٩٠)، وأستاذنا العمري، ((السيرة النبوية الصحيحة))، (٢٥٩/١).

(٣) انظر ((رجحان الكفة)) (مخطوط)، لوحة رقم (٩٣ب)، وانظر ((السـيرة النبويـة الصحيحـة))، (٦٣/١-٢٦٤)، الكتاني، ((التراتيب))، (٤٧٦/١).

(٤) أستاذنا العمري، المصدر نفسه، (٢٦٣/١)، وقد أهدى أحدهـم قوسـه لعبـادة بـن الصـامت رضـي الله عنـه، وانظر الكتاني، ((التراتيب الإدارية))، (٤٧٦/١-٤٧٧).

رغبة في نيل تلك التربية العميقة مثل: حنظلة بن أبي عامر الأنصاري (غسيل الملائكة)، وكعب بن مالك الأنصاري الشاعر أحد الثلاثة الذين خُلّفوا، والحارث بن النعمان الأنصاري وغيرهم[1].

أنها مركزٌ تأهيليٌّ: ومن الأنشطة التي حث فيها النبي ﷺ أهل الصفة إلى ممارستها هي: الاكتساب للإنفاق على الصفة احتياطاً؛ لأن الموارد كانت تتوقف عن هذه المؤسسة أحياناً، لذلك كان الاعتماد على النفس، والإنفاق على أهل الصفة يضفي معنى عميقاً من معاني الأخوة والتكافل الاجتماعي بين أفراد المجتمع المسلم، فلذلك كان بعض أهل الصفة يذهب لجمع الحطب وبيعه، للإنفاق على متطلبات الحياة في (الصفة). «لنفسه ولباقي أصحابه.. وحوز فضيلة الكسب والتصدق»[2]، وكان البضع الآخر يضرب في الأسواق للعمل في الأعمال الحرة كالبيع والشراء، أو استخراج الماء للناس من الآبار، أو غير ذلك حين لا يصد أحدهم عن الواجب.

وأهل الصفة كانوا أهل الدعوة والجهاد فكانوا يخرجون في السرايا، وكذلك كانوا يخرجون لتعليم القرآن إلى الأماكن التي يرسلهم إليها رسول الله ﷺ[3].

ب- صُفّة النساء أو (الجمعية النسائية الخيرية):

وقد علمنا مما سبق ووردت به النصوص أن هناك صُفّة خاصة بالنساء[4] كنّ يتخذنها مكاناً لاجتماعهن، وتشاورهن على القيام ببعض الأعمال المفيدة، ويشير

---

(١) انظر السخاوي، ((رجحان الكفة))، لوحة (٨٧): الكتاني، ((التراتيب))، (٤٧٨/١)، وأنظر أستاذنا العمري، ((السيرة النبوية الصحيحة))، (٢٥٩/١).

(٢) ((رجحان الكفة))، لوحة (٨٨ب).

(٣) الخزاعي، تخريج الدلالات، (٦٦-٦٩)، انظر ((رجحان الكفة))، لوحة (٩٩/١ب)، والسيرة الصحيحة، (٢٦٤/١)، الكتاني ((التراتيب الإدارية))، (٤٧٧/١، ٤٧٨). كما حصل في بعث الرجيع - وبئر معونة.

(٤) انظر سنن النسائي، (٧٧/٨)، وانظر سنن أبوداود، (٤٤٨/٢)، أستاذنا الدكتور أكرم العمري، ((السيرة النبوية الصحيحة))، (٢٥٨/٢، ٣٥٠)، ((التراتيب الإدارية))، (١٢٠/٢).

هذا إلى مشروعية عمل المرأة الجماعي لأهداف ومصالح شرعية لقوله ﷺ للنساء عند طلبهن يوماً خاصاً لهن قال: (اجتمعن في يوم كذا وكذا في مكان كذا وكذا)[1].

وكذلك كان للنساء مندوبة تتحدث باسمهن يدل على ذلك قول أسماء بنت يزيد بن السكن الأنصارية لرسول الله ﷺ: (إني رسول من ورائي من جماعة نساء المسلمين كلهن يقلن بقولي، وعلى مثل رأيي)[2]، وقد استمرت هذه (الجمعية النسائية الخيرية) مدة تشغل مكاناً خاصاً بها في المسجد، حتى طلب عمر رضي الله عنه خروجهن من المسجد. تقول أم حُبَيّة خولة بنت قيس[3]: «كنا نكون في عهد رسول الله ﷺ وأبي بكر رضي الله عنه، وصدراً من خلافة عمر رضي الله عنه في المسجد نسوة قد تخاللن وربما غزلت بعضنا فيه الخوص... فأخرجنا عمر...»[4].

ج- دور الضيافة:

وهي إحدى المؤسسات الاجتماعية المهمة في المجتمع العربي قبل الإسلام وقد طورت الفكرة بعد قيام الدولة الإسلامية في عصر النبوة؛ لتكون لها دور ضيافة خاصة لها نظامها وإدراتها وبرامجها، ومع ذلك لم تستغن الدولة عن مجهود الأفراد في خدمة مشروعاتها، وبخاصة في تلك المرحلة التأسيسية. وكانت تنقسم إلى ما يلي:

---

(١) البخاري، (١/٣٤)، وانظر ابن عبدالبر، الاستيعاب بهامش «الإصابة»، (٤/٢٣٧-٢٣٨).

(٢) الكتاني، «التراتيب الإدارية»، (٢/١٢٠-١٢١)، وابن عبدالبر، «الاستيعاب بحاشية «الإصابة»، (٤/٢٣٧-٢٣٨).

(٣) ابن سعد، «الطبقات»، (٨/٣٢٥)، وابن حجر، «الإصابة»، (٤/٢٩٣،٤٦٨).

(٤) الكتاني، «التراتيب الإدارية»، (٢/١٢٠-١٢١).

١- دور الضيافة داخل المسجد:

وهي عبارة عن خيام تُضرب في المسجد لاستقبال ضيوف الدولة وبخاصة الوفود التي كانت تقدم لإعلان إسلامها، أو محاورة النبي ﷺ حول قضايا الإسلام[١] ونظمه، والحقوق والواجبات التي تتعلق بمن يعلن إسلامه.

وكانت هذه الخيام تُضرب عندما تكون الصفة -وهي دار الضيافة الثابت في المسجد- مشغولة بأهل الصفة نزلائها الدائمين، أو بضيوف آخرين حلّوا فيها.

٢- دور الضيافة خارج المسجد:

وهذا النوع من المؤسسات الاجتماعية منها ما كان ينشأ تبرعاً من الأفراد ابتداءً، أو يتبرع بعض المحسنين ببيوت لهم تُجعل دوراً للضيافة على سبيل الدوام والاستمرار إسهاماً منهم في بناء مؤسسات الدولة الإسلامية.

وكان هناك نوع آخر من دور الضيافة وهو مؤقت بحسب الظروف، وذلك عندما يكون هناك زخم من الضيوف، كما حصل في عام الوفود القادمين إلى المدينة حيث امتلأت الأماكن الدائمة، فاستخدمت دور بعض الصحابة والصحابيات الواسعة مكاناً لاستقبال الضيوف.

ومن أهم دور الضيافة خارج المسجد:

دار الضيفان الكبرى:

وهذه الدار أنشأها عبدالرحمن بن عوف رضي الله عنه وتبرع بها للدولة، وكانت أول دار يبنيها مهاجريّ في المدينة، وقيل أن رسول الله ﷺ قد شارك في

---

(١) التلمساني، ((تخريج الدلالات السمعية))، (٦٦٩، ٦٧٠)، الكتاني، ((التراتيب الإدارية))، (١/٤٤٨).

بنائها، وكانت هذه الدار تستقبل كبار الضيوف الذي يردون على المدينة[1].

دار رملة بنت الحارث الأنصارية:

وهذه الدار تبرعت بها الصحابية الجليلة رملة بنت الحارث الخزرجية من بني النجار[2]، وهي من المبايعات الأوائل وزوجها من الذين بايعوا في العقبة الأولى، وهو معاذ بن الحارث[3] والمشهور بمعاذ بن عفراء، وكان هذا الدار هو الذي صار داراً مخصصة للضيافة[4]، وهي المؤسسات المبكرة التي خصِّصت لاستقبال ضيوف الدولة الإسلامية وقد نزلها كثير من الضيوف والوفود، وكانت تتسع لحوالي (٤٠٠) فرداً[5].

٣- دور الضيافة المؤقتة:

وانطلاقاً من الإحساس بأن الدولة الإسلامية ما هي إلا مؤسسة قامت لحراسة الدين وسياسة الدنيا، والنيابة عن الأمة في تصريف شؤونها، فقد أصبح هذا المعنى العميق سلوكاً تمارسه الأمة مع الدولة بروح من الانسجام والالتحام، والتعاون والتناصر لتحقيق برامج الدولة، وإسنادها عند قصورها عن أداء وظيفتها.

فلذلك كانت القاعدة في الظروف الطارئة: «أنه إذا جاع المسلمون فلا مال لأحد»، أي أن الدولة لها الأخذ من أموال الأغنياء بالمعروف، وصرفها في أوجهها

---

(١) السمهودي، «خلاصة وفاء الوفاء»، (١/٥٥٥)، وانظر الكتاني، «التراتيب الإدارية»، (١/٤٤٥).

(٢) انظر ابن حجر، «الإصابة»، (١/٣٠٥)، وكانت تكنى أم ثابت، انظر ابن سعد، «الطبقات»، (٨/٣٢٧).

(٣) انظر ابن حجر، «الإصابة»، (١/٤٠٨)، ابن عبدالبر، «الاستيعاب بحاشية «الإصابة»، (١/٣٦٤).

(٤) انظر الكتاني، «التراتيب الإدارية»، (١/٤٤٧)، التلمساني، تخريج الدلائل، (٦٦٧).

(٥) نفس المصدر، (١/٤٤٦-٤٤٩)، مثل: وفد سلامان، وفد بني كلاب، وفد تميم، وفد بني فزارة، وفد بني حنيفة، وقد سجن فيها بنو قريظة بعد حكم سعد بن معاذ عليهم فوسعتهم هذه الدار مما يدل على سعتها. وانظر «الدلالات السمعية»: التلمساني، (٦٦٧).

الشرعية من خلال رقابة الأمة، ومن خلال المسؤولية التضامنية بين الدولة والأمة، ولذلك عندما وردت وفود القبائل من كافة أنحاء الجزيرة، وكانت الدولة في بدايات بنائها المؤسسي، تجلت لنا صورة عملية ناصعة للتضامن بين الأمة والدولة تعكس لنا ذلك، فنجد أن النبي ﷺ وهو رئيس الدولة كان ينزل ضيوف الدولة في بيوت الصحابة ممن تتسع داره لذلك، أو لغرض دعوي، أو لميزة يتميز بها صاحب الدار أو الضيف لتحقيق مصلحة دعوية[١].

د- سجن النساء:

ومن المؤسسات الاجتماعية الملحقة بالمسجد (سجن النساء) وقد اختير له مكان قرب المسجد: وهو عبارة عن غرفة من خشب الشجر في مدخل المسجد تسمى الحظيرة أو الحصيرة، وكانت توضع فيه السبايا من النساء بعد الغزوات التي تحصل بين المسلمين وقبائل المشركين لحين النظر في أمرهن[٢].

وكانت ممن حبسن فيه سَفّانة[٣] بنت حاتم الطائي، التي سبيت بعد تبوك، وذكرت كتب السيرة أنها تعرضت لرسول الله عند مروره بقربها للذهاب إلى المسجد فقالت: «يا محمد إن رأيت تُخلي عنّا ولا تُشمت بنا أحياء العرب فإني ابنة سيد قومي... أنا ابنة حاتم الطائي». فقال النبي ﷺ: (خَلّوا عنها فإن أباها كان يحب مكارم الأخلاق، والله يحب مكارم الأخلاق)[٤].

---

(١) انظر الكتاني، التراتيب، (١/٤٤٨-٤٤٩)، مثل: دار بلال بن رباح، دار النعمان بن مقرن، دار أبي أيوب الأنصاري، دار المغيرة بن شعبة.

(٢) التلمساني، الدلائل، (٣١٢-٣١٥)، وانظر الكتاني، «التراتيب الإدارية»، (١/٣٠٠)، والسهيلي، الروض، (٤٠٣/٧)، والبخاري، (١١٨/١).

(٣) ابن حجر، «الإصابة»، (٣٢٩/٤).

(٤) الصالحي، «سبيل الهدى والرشاد»، (٥٧٨/٦).

وهذا الخبر يوضح لنا مدى اهتمام المسلمين بالمسجونين وبخاصة النساء منهن، حيث اختير جوار المسجد مكاناً لهن؛ لأنه أكثر أماناً لهن فضلاً عن المعاملة الكريمة التي كان يعاملها لهن رسول الله، مما جعل سفانّة تسرع باللحاق بأخيها عدي بن حاتم الطائي [1] في الشام؛ لتقنعه بالقدوم إلى المدينة واللقاء برسول الله ﷺ فقالت له: «أرى والله أن تلحق به –رسول اللهﷺ– سريعاً، فإن يكن الرجل نبياً فللسابق إليه فضله... وإن يكن ملكاً فلن تَذلّ في عزّ اليمن، وأنت أنت، قال: قلت: والله إن هذا للرأي»[2].

وبذلك كان حسن المعاملة لتلك السجينة دعوة لها ولأخيها، وكان سيد قومه فأسلمالله تعالى بعدما وعيا حقيقة هذا الدين عن طريق معاملة السجين.

هـ- المؤسسة الصحية الخدمية:

ومن المؤسسات الملحقة بالمسجد خيمة رفيدة الإسلامية، وكانت هذه المؤسسة من المؤسسات الخدمية التي كانت تشرف على تطبيب المسلمين والتي صارت سابقة حضارية تطورت بحسب معطيات كل زمان من الأزمان وعدَّ الذين أرخو التاريخ الطب بأن خيمة رفيدة أول مستشفى في الإسلام[3].

ورفيدة بنت كعب الأسلمية[4] كانت ممن لهن علم في الطب في زمانها. وكانت قد حبست نفسها على من فيه ضيعة من المسلمين[5].

---

(١) ابن حجر، «الإصابة»، (٤/٣٢٩).

(٢) السهيلي، «الروض الأنف»، (٧/٤٠٤).

(٣) انظر الكتاني، «التراتيب الإدارية»، (١/٤٥٣،٤٥٤)، و«تاريخ البيمارستانات في الإسلام»، الدكتور أحمد عيسى، (٩)، والتلمساني، «تخريج الدلالات السمعية» ، (٧٦٣).

(٤) ابن حجر العسقلاني، «الإصابة»، (٤/٣٥٢).

(٥) ابن هشام، «السيرة»، (٣/٢٥٨)، ابن عبدالبر، «الاستيعاب بحاشية «الإصابة»، (٤/٣٥٣).

وعندما جرح سعد بن معاذ رضي الله عنه: «ضرب عليه رسول الله ﷺ خيمة في المسجد يعوده من قريب»[1].

٢- نشاطات اجتماعية أخرى من خلال المسجد:

إضافة إلى الدور الدائم المهم الذي يقوده المسجد في العبادة والسياسة والاجتماع والتعليم، فإن هناك نشاطات اجتماعية أخرى كان المسجد هو المكان الذي تقام فيه ألا وهي النشاطات الترويحية.

والمعلوم أن النشاط الترويحي ظاهرة بشرية قديمة قدم الإنسان، وهو أحد النشاطات التي تنمي الفرد نفسياً واجتماعياً، وبتقدم البحوث الاجتماعية والنفسية وعلم الانثروبولوجيا، تناول الباحثون النشاط الترويحي باعتباره موضوعاً أساسياً وظاهرة اجتماعية، ترتبط بحياة الإنسان وبالبناء الاجتماعي[2].

ومنهج الإسلام الشمولي عالج هذا الموضوع ووضع له الإطار المتناسق مع حاجة الإنسان النفسية والاجتماعية ومثالية الإسلام الواقعية، ونظرته للإنسان والحياة، وكانت سيرة النبي ﷺ وحياته وحياة أصحابه هي النموذج التطبيقي لهذا المنهج، فهذا رسول الله ﷺ يقول: (ساعة وساعة)[3]، ويقول ﷺ: (الهوا والعبوا فإنني أكره أن أرى في دينكم غلظة)[4] رواه البيهقي.

---

(١) البخاري، «الجامع الصحيح»، (باب ضرب الخيمة في المسجد)، (١/١١٩). الحديث متفق عليه [المجلة]

(٢) د. محمد نجيب توفيق، «أضواء على الرعاية الاجتماعية في الإسلام»، (١٩٧)، نشر مكتبة الأنجلو مصرية، بالقاهرة، (١٩٨٢م).

(٣) الصديقي، «دليل الفالحين شرح رياض الصالحين»، (٢/١٨٥-١٨٩)، نشر دار الفكر، بيروت. والحديث صحيح.

(٤) أستاذنا الدكتور عبدالكريم زيدان، «المفصل في أحكام المرأة»، (٤/٩٨)، وانظر السيوطي، «الجامع الصغير»: (٢/١٦١)، طبعة بيروت - دار المعرفة. والحديث موضوع لايثبت. [المجلة].

وعلق ابن حجر الهيثمي[1] على ذلك بقوله: «ذلك دليل لطلب ترويح النفس إذا سئمت، وجلائها إذا صدئت باللهو واللعب المباح»[2].

وقول علي رضي الله عنه: «روحوا عن القلوب ساعة بعد ساعة فإن القلب إذا أكره عمي»، ولعل قول ابن عباس فيه تفسير عملي لحديث رسول الله ﷺ، ومن خلال ممارسته التعليم اكتشف هذه الظاهرة النفسية، فقال في وصفها وعلاجها: «أحمضوا -أي ميلوا إلى المفاكهة والأخذ في مُلَح الكلام والخطابات- وهاتوا من أشعاركم فإنَّ النفس تَملُّ كما تَملُّ الأبدان»[3]. مع أن الغرب لم يشخص هذه الظاهرة النفسية السلوكية إلا في نهاية القرن التاسع عشر مع ظهور العلوم النفسية والاجتماعية، ووضعت نظريات اللعب، وأهميتها في تعديل سلوك الإنسان ولكن بحسب تصورهم المادي[4]...؟!

وكان هذا النشاط الترفيهي له أوجه متعددة تتجلى في مزاح رسول الله ﷺ مع أصحابه، ومزاح الصحابة مع بعضهم بالقول، أو ببعض الأفعال التي تدخل السرور على النفوس، بل كان هناك كما في أي مجتمع آخر أفراد طبيعتهم المزاح والإضحاك.

وقد ترجم الكتاني في كتابه باباً (للمضحكين في عهد رسول ا لله)[5]، وتضمنت كتب المجالس والآداب أبواباً في ذلك، مثل (بهجة المجالس) لابن

---

(١) انظر الكتاني، «التراتيب الإدارية»: (١٥٧/٢).
(٢) أستاذنا الدكتور زيدان، نفس المصدر، (٩٩/٤)، وانظر الكتاني: «التراتيب الإدارية»، (١٥٧/٢).
(٣) ابن عبدالبر القرطبي، «بهجة المجالس»، طبعة بيروت، (١١٥/١)، وانظر الكتاني، «التراتيب الإدارية»، (٣٥١/٢-٣٥٢)، وانظر ابن منظور، «لسان العرب»، طبعة دار المعارف بمصر، باب (حمض): (٩٩٨/٢).
(٤) د. محمد نجيب توفيق، «أضواء على الرعاية الاجتماعية في الإسلام»، (١٩٧).
(٥) الكتاني، «التراتيب»، (٣٥٦/٢).

عبدالبر القرطبي[1]، وغيره.

وكانت هناك بعض الألعاب الجادة[2] مثل: الرماية، والسباحة، واللعب بالحراب، والتسابق في الركض، والمصارعة، واللعب بالكرة والصولجان، والفروسية.

وكانت هناك المسابقات الفكرية، والتناشد بالشعر، والإنشاد المغنّى في بعض المناسبات، لأن ديننا فيه فسحة وهي جزء من بناء الإسلام الشامل لجميع جوانب الحياة؛ ليكون بناء الإنسان سوياً متكاملاً تلبّى احتياجاته الروحية والنفسية والفكرية والجسدية من خلال هذا المنهج الرباني[3].

والذي نريد أن نجليه هو النشاط الذي كان مرتبطاً في المسجد وتمّ فيه، مما يعطينا الدليل على ضرورة أن تكون مساجدنا شاملة لرعاية المسلم في جميع أوجه نشاطه الاجتماعي، ومن أهم هذه النشاطات:

١- المسابقات الفكرية الثقافية:

وهذا النوع من النشاط الترويحي يستثير ثقافة الفرد ويستفز العقل، ويعصف بالذهن لغرابته، فتكون فيه المتعة والراحة والمنافسة، فضلاً عن استغلال مساحات من المخ وتعويده على التفكير، وهذا نمط من أنماط التثقيف والحثّ على الابتكار.

وقد بوّب البخاري لذلك باباً في كتابه الجامع[4] بعنوان: (طرح الإمام المسألة على أصحابه ليختبر ما عندهم من العلم).

---

(١) تحقيق دكتور محمد مرسي الخولي رحمه الله مدير معهد المخطوطات في القاهرة سابقاً، دار الكتب العلمية، بيروت، ط٢، (١٩٨٢م).

(٢) الكتاني، نفس المصدر، (٢/١٤٥،١٤٦،١٥٧،٣١٤).

(٣) نفس المصدر، (٢/١٢١-١٣٧).

(٤) البخاري، طبعة تركيا، (١/٢٢).

ومثّل لذلك بحديثٍ لابن عمر رضي الله عنه، وهو في فتوته كان يحضر مجلساً من مجالس رسول الله ﷺ ممتحناً لثقافة الصحابة في حلّ الألغاز، والحديث هو: «من الشجر شجرة لا يسقط ورقها وإنها مثل المسلم! ماهي؟ قال: فوقع الناس في شجر البوادي، قال عبدالله: فوقع في نفسي أنها النخلة، ثم قالوا: حدثنا يا رسول الله؟! قال: هي النخلة».

وعندما أخبر عبدالله بن عمر والده رضي الله عنهما بأنه عرف الجواب، ولكنه استحيا من شيوخ الصحابة[1]؛ لأنه كان أصغر الحاضرين سناً، قال له والده: والله لو قلتها لكان أحب إلي من أن يكون لي كذا وكذا.

٢- تناشد الشعر:

قول الشعر يعد نشاطاً ترويحياً وظاهرة اجتماعية، وكان النبي ﷺ يستنشد الصحابة الشعر في المسجد[2]، ويحث حسان رضي الله عنه وغيره على إنشاد الشعر، وهجو المشركين ويقول: «إنه أنكى من وقع الحسام» وكان يقول: (اللهم أيده بروح الفدس)[3].

٣- الرماية والتهديف بالسهام:

وكان النبي ﷺ والصحابة رضي الله عنهم يتبارون في إصابة الأهداف بسهامهم؛ لأن المحافظة على خبرة التهديف والرماية مطلب شرعي لتعلقه بالجهاد، فحذر النبي ﷺ من نسيانه بقوله: (من علم الرمي ثم تركه فليس منا)، وقال ﷺ: (ستفتح عليكم أرضون، ويكفيكم الله فلا يعجز أحدكم أن يلهو بأسهمه)[4].

---

(١) نفس المصدر، (١/ ٤٢)؛ وانظر الكتاني، «التراتيب الإدارية»: (٢/ ٢٣١-٢٣٢).

(٢) انظر الكتاني، التراتيب، (١/٢١٠، ٢/٢٩٩-٣٠٠)، والبخاري، «الجامع الصحيح»: (١/١١٦).

(٣) البخاري، «الجامع الصحيح»، (١/١١٦)، وانظر الكتاني، نفس المصدر، (١/٢١١).

(٤) النووي، «شرح صحيح مسلم»، (١٣/٦٤-٦٥).

فجعل ﷺ رمي السهام من قبل اللعب واللهو بها، وفيها دلالة على فضيلة الرمي والمناضلة والاعتناء بذلك بنية الجهاد في سبيل الله تعالى، وجعل نسيان الرمي أو تركه بلا عذر مكروه كراهة شديدة تجعل تاركه ليس على هدي الرسول والإسلام الكامل[1].

وكان المسجد ساحة للتدريب على ذلك، فكان المسلمون يتبارون ورسول الله ﷺ معهم بعد صلاة المغرب أحياناً، وقد روى البخاري في (باب وقت المغرب)[2] عن رافع بن خديج[3] يقول: «كنا نصلي المغرب مع النبي ﷺ فينصرف أحدنا وإنه ليبصر مواقع نبلِه»، أي مكان نزول النبل من الأهداف التي يرمون عليها.

٤- اللعب بالحراب في المسجد:

وقد وردت الأحاديث تدل على أن هذا اللعب كان في الأعياد وفي غيرها، وقد برع في ذلك الأحباش من المسلمين وجعلوا ساحة المسجد لهم ميداناً لإظهار براعتهم في استعمال الحراب والدرق، ومن خلال ألعابهم التي شهروا بها باستعمال حرابهم، وكان النبي ﷺ ينظر إليهم، بل استجاب لعائشة عندما أبدت رغبتها في النظر إليهم، فدعاها لتنظر إليهم من ورائه حتى ملّت، وعندما أراد عمر أن يطردهم طلب منه النبي ﷺ أن يتركهم، مما يدل على إباحة ذلك في المناسبات المختلفة.

ففي صحيح البخاري[4] عن السيدة عائشة قالت: «وكان يوم عيد يلعب السودان بالدرق والحراب، قالت عائشة: فأما سألت النبي ﷺ، وأما قال لي:

---

(١) استاذنا الدكتور زيدان، «المفصل»، (٤/١٠٠).

(٢) البخاري، «الجامع الصحيح»: (١/١٤٠).

(٣) وهو من صغار الصحابة من الأوس يكنى أبوعبدالله وأمه حليمة بنت مسعود كان عريف قومه بالمدينة شهد المشاهد، أصابه سهم في أحد فقال له رسول الله ﷺ: (إنا نشهد لك يوم القيامة) توفي سنة (٧٤هـ)، انظر ابن حجر، «الإصابة» (١/٤٩٥-٤٩٦)، طبعة السعادة، تصوير دار إحياء التراث الإسلامي - بيروت.

(٤) ابن حجر، «فتح الباري شرح صحيح البخاري»، (٢/٤٤٠)، وانظر النووي، «شرح صحيح مسلم»: (٦/١٨٥).

(تشتهين تنظرين؟) فقلت: نعم، فأقامني وراءه خدي على خده وهو يقول: (دونكم يا بني أرفده...)، حتى إذا مللت قال: (حسبُكِ!!) قلت: نعم، قال: (فاذهبي).

وفي رواية لمسلم[1] عن عائشة رضي الله عنها قالت: ((جاء حبش يزفون (يلعبون) يوم عيد في المسجد فدعاني النبي ﷺ..)) الحديث.

وفي هذه الأحاديث دليل واضح على جواز اللعب بالحراب ولو في المسجد لما في ذلك من المران على استعمال آلة القتال، والقدرة عليه، وهذا من أسباب الغلبة والقوة[2].

وهذا جميعه يدل على أن المسجد كان مجالاً لأنشطة متنوعة مما يدل على أهميته في المجتمع المسلم، فهو مؤسسة شاملة دعوية، وسياسة اقتصادية، ورياضية وتعليمية واجتماعية، وهذا مما يدفع المسلمين إلى جعل المسجد مؤسسة شاملة مرة أخرى، لكي يرتبط الإسلام بالحياة، وتنتهي القطيعة بين المسجد والمجتمع وتعود مساجدنا صورةً حية جديدة لتؤدي رسالتها بعد أن عزلت سنين طويلة عن واقع الفرد والمجتمع.

دور المرأة الحضاري في الرعاية والخدمات الاجتماعية:

لقد كان للمرأة المسلمة دور رائد في الإسهام الحضاري من خلال ممارستها العمل المؤسسي المتنوع مما يدل على الأصالة والابتكار المنطلق من مبادئ الإسلام وقيمه، في القيام بواجب إعمار الأرض على هدي المنهج الرباني.

---

(١) النووي، ((شرح صحيح مسلم))، (٦/١٨٦)، كتاب صلاة العيدين - الرخصة في اللعب يوم العيد.

(٢) أستاذنا الدكتور عبدالكريم زيدان، ((المفصل في أحكام المرأة))، (٤/١٠٢-١٠٣)، والكتاني، ((التراتيب الإدارية))، (٢/١٤١).

ثم إن التغيير الاجتماعي الإسلامي أخذ دوره السنني في النمو والاستمرار في العطاء، لأن طبيعة التغيير الثقافي والاجتماعي تختلف عن التغيير السياسي أو المادي؛ لأن التغيير الثقافي متعلق بالأفكار والسلوك والواقع الاجتماعي، لذلك فالصدر الأول كان عصر التأسيس الحضاري، والذي استغرق ثلاث عشرة سنة في مكة لبناء التصور الإسلامي العقائدي ونظامه الأخلاقي. وفي المدينة استغرق عشرة سنوات من العمل المتواصل لبناء الدولة، والنموذج الحضاري من خلال تشريع أنظمة الحياة، وبناء المؤسسات، وأسس التعامل في المجتمع المسلم في جميع جوانب الحياة ونشاطاتها، حتى نزول قوله تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الأِسْلاَمَ دِيناً﴾ [المائدة:٣]. وكان ذلك إيذاناً بكمال البناء العقائدي والأخلاقي والتشريعي والمؤسسي، وكمل وضع منهج الإسلام في الحياة، وبالتالي فإن الرسول ﷺ قد أدى مهمة الأمانة التي كلف بها، وبالتالي فهي إيذان برحيل الرسول ﷺ إلى الرفيق الأعلى، كما فسر ذلك عمر بن الخطاب رضي الله عنه(١)، ولذلك فقد عبر رسول الله ﷺ عن ذلك بقوله: (تركت فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا بعدي أبداً كتاب الله وسنتي)(٢).

ولذا فإن رسول الله ﷺ أبقى لنا المنهج ومصادره المعصومة، الذي قامت الحضارة الإسلامية الخاتمة عليه، واستمدت بقائها وديمومتها من طبيعته الربانية المعطاءة المتنامية لتطلعات الإنسان إلى يوم القيامة.

وفي ظل هذه المعاني كان للمرأة نشاطها في حياة المجتمع المسلم الذي يمثل جزءاً مهماً من النظام الإسلامي وحضارته، وشاركت المرأة المجتمع بإثراء الجوانب

---

(١) ابن كثير، ((تفسير القرآن العظيم))، (٢/١١٣)، نشر أمجد أكاديمي، لاهور، باكستان، (١٩٨٢).

(٢) ((مختصر سنن أبوداود)) للحافظ المنذري: (٢/٣٩٢)، تحقيق أحمد محمد شاكر ومحمد حامد الفقي، نشر دار المعرفة – بيروت، وانظر المستدرك للحاكم: (١/١٣). والحديث صحيح [المجلة]

التطبيقية لهذه الحضارة السامقة، وكانت مشاركتها في المحاور الآتية:

المحور الأول: إنشاء وتفعيل مؤسسات الرعاية والخدمات الاجتماعية وأنشطتها.

المحور الثاني: تمويل المشروعات المؤسسية والاجتماعية.

المحور الأول: إنشاء وتفعيل مؤسسات الرعاية والخدمات الاجتماعية:

ولقد أسهمت المرأة في جوانب متنوعة في هذا الجانب ومن أهم ما أسهمت به:

أولاً -إنشاء جمعية خيرية (صُفَّة النساء):

وكان هذا عمل مؤسسي مهم ينسجم وطبيعة المرأة ودورها لذا اتفقت مجموعة من النساء على هذا العمل، وكانت صاحبة هذه الفكرة والتي رَوَتْ لنا هذا الخبر أسماء بنت يزيد بن السكن الأنصارية[(١)] ابنة عم معاذ بن جبل وهي من المبايعات الأوائل للنبي ﷺ، وكانت من ذوات العقل والدين، وكانت مندوبة النساء إلى النبي ﷺ لسؤاله عن واجب المرأة في المجتمع ودورها في العمل المؤسسي...!! فأثنى عليها ﷺ وعلى حسن سؤالها عن دينها، وقد وصفت نفسها بقولها: «إني رسول من ورائي من جماعة نساء المسلمين كلهن يقلن بقولي»[(٢)]، مما يدل على مشروعية أن يكون للنساء جماعة ويصدرن عن رأي واحد في القضايا المهمة الخاصة بالمرأة واهتماماتها بدينها وخدمة لدعوته.

ويبرز هذا كذلك في قول خولة بنت قيس أم صبية زوجة هشام بن عامر[(٣)] الذي

---

(١) ابن حجر العسقلاني، «الإصابة»، وبهامشها الاستيعاب لابن عبدالبر القرطبي، (٤/٢٣٥،٢٣٧)، شهدت اليرموك وقتلت تسعة من الروم بعمود خيمتها وهي لا زالت عروساً صحبها زوجها معها!!

(٢) ابن حجر، نفس المصدر، (٤/٢٩٣،٤٦٨)، وابن سعد، (٨/٣١٩)، الكتاني، (٢/١٢٠-١٢١).

(٣) هشام بن عامر بن أمية الأنصاري قيل قاتل قتالاً شديداً في فتح كابل فقيل أنه ألقى بيده إلى التهلكة، قال أبوهريرة =

اشترك في فتح كابل، وإحدى المؤسِسات لهذا العمل، قالت: «كنا في عهد رسول الله ﷺ وأبي بكر وصدراً من خلافة عمر في المسجد نسوة قد تخاللن -أي تعاهدن- وربما غزلنا أو عالج بعضنا الخوص»[1].

وكانت الأنشطة التي يقمن بها هي:

١- **طلب العلم:** طلبت النساء من النبي ﷺ أن يلقي عليهن دروساً خاصة وأن يفرد لهن يوماً؛ لأن الرجال قد غلبوا عليهن في ذلك فاستجاب ﷺ[2]، وهذا الاهتمام النبوي بتعليم المرأة كان تشجيعاً ودفعاً للمرأة المسلمة إلى التعلم، ولذلك ظهرت بعض النماذج النسوية المتميزة في جانب من جوانب العلم ومن هذه النماذج:

السيدة عائشة رضي الله عنها التي وصفها الإمام علي بقوله: «لو كانت امرأةُ خليفة لكانت عائشة»[3]، وقال أبوموسى الأشعري رضي الله عنه: «ما أشكل على أصحاب رسول الله ﷺ شيء فسألنا عائشة إلا وجدنا عندها علماً منه»[4]، قال عروة بن الزبير: «كانت عائشة رضي الله عنها أعلم الناس بالحديث، والقرآن والشعر»[5]، وأضاف ابن عبدالبر القرطبي: «علم الفقه والطب» ووصفها بأنها

رضي الله عنه لا ولكنه التمس قوله تعالى: ﴿ومنهم من يشري نفسه ابتغاء مرضاة الله..... الآية﴾، توفي في البصرة. انظر ابن حجر، «الإصابة»: (٣/٦٠٥).

(١) المصدر السابق، (٤/٢٣٨)، والكتاني، «التراتيب الإدارية»، (٢/١١٩).

(٢) البخاري، الجامع، طبعة تركيا، (١/٣٤)، وابن عبدالبر، الاستيعاب بهامش «الإصابة»، (٤/٢٣٧-٢٣٨).

(٣) ابن الرسام الحموي، «نصيحة النساء المسلمات»، تحقيق دكتور ليث سعود جاسم، تحت الطبع، رسالة دكتوراة نوقشت، (١٤١١هـ - ١٩٩١م)، وانظر الكتاني، «التراتيب الإدارية»، (٢/٤٣٤).

(٤) الزركشي، «الإجابة لإيراد ما استدركته عائشة على الصحابة»، (٥٨)، تحقيق سعيد الأفغاني، المكتب الإسلامي، دمشق، (١٣٩٠هـ - ١٩٧٠م)، ط٢.

(٥) نفس المصدر، (٥٩).

وحيدة عصرها في هذه العلوم[١].

ومن المتخصصات بالكتابة **الشفاء بنت عبدالله**[٢]، وقد انتدبها رسول الله ﷺ لتعليم زوجته حفصة بنت عمر رضي الله عنهما الكتابة، وكانت السيدة عائشة تكتب وتبدأ في مكاتباتها بعد البسملة بقولها: من المرأة عائشة بنت أبي بكر حبيبة حبيب الله[٣]، وأورد القلقشندي[٤] أن جماعة من النساء كن يكتبن ولم ير أن أحداً من السلف أنكر عليهن ذلك[٥]. وما ورد من نهي عن تعليم النساء الكتابة فهو محمول على من يخشى من تعليمهن الفتنة[٦]، وحديث عائشة يدل على جواز تعليم النساء الكتابة، وبالتالي فكان من نشاط النساء تعلم الكتابة وتعليمها، ولعل كون حفصة من الكاتبات رضي الله عنها لذا رشحت أن تكون خازنة للنسخة الأصلية لأول مصحف مكتوب كامل، وبقي هذا المصحف تحت إشرافها حتى طلبه سيدنا عثمان بن عفان؛ ليكون النسخة الأساسية التي اعتمدت من قبل الصحابة لجمع المسلمين على مصحف واحد[٧]، ولعل ما ورد من النهي عن الكتابة عند بعض العلماء فالمقصود بها هي الوظيفة الإدارية التي وجدت بعد ذلك في العصر العباسي.

---

(١) الاستيعاب في معرفة الأصحاب بحاشية ((الإصابة))، (٣٥٨)، وانظر ابن حجر، ((الإصابة))، (٤/٣٦٠).

(٢) ابن حجر، ((الإصابة))، طبعة دار السعادة، (٤/٣٤١-٣٤٢)، وانظر التلمساني، ((تخريج الدلالات السمعية))، (٧١). أسلمت الشفاء قبل الهجرة وهي من المهاجرات الأول وبايعت النبي ﷺ وكانت من عقلاء النساء وفضلائهن وولاها عمر الحسبة في السوق.

(٣) القلقشندي، ((صبح الأعشى في صناعة الإنشا))، (١/٦٤)، نشر وزارة الثقافة والإرشاد القومي، مصر، (١٣٨٣هـ - ١٩٦٣م)، ط١.

(٤) هو ابن عباس أحمد بن علي القلقشندي نسبة إلى بلدة قلقشندة في مصر، وكان ممن برع في الفقه والأدب والتأريخ، ولد في قلقشندة سنة (٧٥٦هـ) وتوفي في (٨٢١هـ) انظر ترجمته في شذرات الذهب.

(٥) القلقشندي، المصدر السابق، (٦٤).

(٦) الكتاني، ((التراتيب الإدارية))، (١/٥١-٥٢). أحاديث النهي عن الكتابة للنساء كلها لا تصح [المجلة].

(٧) مناع القطان، ((مباحث في علوم القرآن))، (١١١،١١٤،١١٦).

ومن العلوم التي برعت بها المرأة في صدر النبوة العناية بحفظ القرآن، ومن أشهر الصحابيات الحافظات **أم ورقة** بنت عبدالله بن الحارث الأنصارية(١)، وكان رسول الله ﷺ يلقبها بالشهيدة، وكان يزورها مع عمر رضي الله عنه، وكان يقول لعمر: (انطلقوا بنا نزور الشهيدة)؛ لأنها سألت رسول الله المشاركة في غزوة بدر لمداواة المرضى وطلباً للشهادة، فقال لها رسول الله : «قرّي في بيتك فإن الله يرزقك الشهادة»(٢)، وبالفعل استشهدت غدراً حيث خنقها خادمان لها: غلام وزوجته، فقتلاهما طمعاً في أن يُعتقا بسرعة؛ لأنها قد وعدتهما بأن يّدبرا أي يعتقا بعد موتها ويرثاها.

وكانت أم ورقة من الحافظات المتميزات، ولذلك أرادت أن تشيع قراءتها وأن تعلم بنات جنسها، فطلبت من رسول الله أن تؤم النساء في بيتها، فأذن لها رسول الله ﷺ بذلك، واختار لها مؤذناً شيخاً كبيراً، والدليل أنها كانت تقرأ وأن قراءتها كانت تسمع خارج البيت من المارّين بقرب دارها دل على ذلك قول عمر رضي الله عنه: «والله ما سمعت قراءة خالتي أم ورقة البارحة..!!»؛ لأنه كان يتجول في الليل، وقد ألف سماع قراءتها عند تهجدها فدخل الدار فوجدها قد قتلت خنقاً، فحكم على القاتلين بالصلب، فكانا أول مصلوبين في المدينة(٣).

ومن المشهورات بحفظ وتلاوة القرآن: **أم يعقوب**، كانت عارفة بالتلاوة وأحكامها، وهذا مما دعاها أن تحاور ابن عباس حَبر القرآن معترضة عليه فيما سمعته من حديث

---

(١) وهي من المبايعات كبيرات السن، وعندما قتلت كان عمر رضي الله عنه يقول عنها: «صدق رسول الله ﷺ حين كان يقول انطلقوا بنا نزور الشهيدة». انظر «الإصابة» بهامشها الاستيعاب، (٤/٥٠٤-٥٠٥)، وانظر ابن سعد، «الطبقات»، (٨/٣٣٥).

(٢) انظر ابن عبدالبر القرطبي، الاستيعاب بهامش «الإصابة» لابن حجر، (٤/٥٠٥)، الحديث في أبي داود وهو صحيح [المجلة].

(٣) نفس المصدر السابق والصفحة.

يرويه عن رسول الله: في النهي عن النمص والوصل والوشم والتفلج، فأبدت دهشتها مستندة إلى أن ذلك لم يرد في كتاب الله حسب ادعائها بأنها قرأت ما بين الدفتين ولم تجد الآيات المتعلقة بهذا، ولكن ابن عباس قال لها: ((إن كنت قرأت القرآن فقد وجدتيه!! قالت: أين؟ قال في قوله تعالى: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا﴾ [الحشر:٧]))، فاستجابت بعد أن فهمت النص فهماً صحيحاً ولم تجادل(١).

٢- **النشاط المهني:** وهذا هو محور النشاط الاجتماعي الخدمي، وكانت النساء المسلمات يقمن بنشاط متنوع فيه مما يخدمن به البيئة، ويسهمن من خلال هذا النشاط في تمويل الأعمال الاجتماعية فضلاً عن أنهن يكتسبن الخبرات المتنوعة، ويعلّمن الأخريات هذه الخبرات،فضلاً عن قضاء الوقت في أمر نافع للمجتمع المسلم واستغلال طاقات المرأة المسلمة وتوظيفها، وإبعادها عن تضييع الوقت في قيل وقال.

وأهم أوجه هذا النشاط هي:

أ- **الغَزْل:** وهو تجهيز المادة الأولية من الخيوط من الصوف أو الشعر، لتستعمل في إنتاج الملابس، أو الأردية والأغطية، أو الحبال لاستعمالها في الإسعافات الأولية وغيرها وقت الغزوات.

وقد وردت في ذلك أحاديث وأخبار قد يدخل بعضها في دائرة الضعف(٢)، ولكن لما كان هذا الأمر يدخل في دائرة فضائل الأعمال وفيه تسويغ لأعمال نافعة تمثل جانباً حيوياً من الحياة الاجتماعية، فلا بأس من الاستئناس بها جرياً على عادة

(١) الكتاني، ((التراتيب الإدارية))، (٤٧/١)، وانظر ابن الرسام، ((نصيحة النساء))، (٢٩٢-٢٩٣)، والبخاري، (٦٢/٧-٦٣)، والنووي، ((شرح صحيح مسلم))، (١٥/١٤).

(٢) أحاديث أمر النساء بالغزل كلها ضعيفة غير ثابتة [المجلة].

المحدثين في قبول الضعيف من الحديث في فضائل الأعمال، مما لا يترتب عليه مخالفة مشروع أو مدخل إلى ممنوع. فمما ورد في ذلك:

ما أخرجه أبونعيم في كتابه (المعرفة) عن عبدالله بن ربيع الأنصاري: (علموا أولادكم السباحة والرماية، ونعم لهو المؤمنة في بيتها: المغزل)(١).

ومما أخرجه الديلمي عن أنس رفعه: (نِعْمَ لهو المرأة مغزلها)(٢).

وأخرج ابن عساكر عن زياد بن السكن قال: «دخلت على أم سلمة وبيدها مغزل تغزل فيه، فقلت كلما أتيتك وجدت في يدك مغزلاً!! قالت: إنه يطرد الشيطان ويذهب بحديث النفس، وأنه بلغني عن رسول الله ﷺ قال: (أن أعظمكن أجراً أطولكنّ طاقة). (والطاقة: كرة خيوط الصوف أو الشعر)(٣).

وإضافة إلى أن عملية الغزل كانت تتم في البيوت، فإنها كانت تتم في المسجد في صُفّة النساء حيث كانت النساء يجتمعن «وربما غزلت بعضنا فيه الخوص»، كما قالت خولة بنت قيس(٤).

وأحياناً يكون الغزل في أرض المعركة لتجهيز المجاهدين بالحبال وغيرها لأهميتها في المعركة وبخاصة في المعارك.

---

(١) الكتاني، «التراتيب الإدارية»، (١١٩/٢). هذا ضعيف عن الرسول ثبت عن السلف [المجلة].

(٢) أخرج الحديث الديلمي شيرويه بن شهردار (ت٥٠٩هـ) في مسند الفردوس بمأثور الخطاب عن أنس بن مالك مرفوعاً: (٢٦٧/٤)، نشر دار الكتب العلمية – بيروت، (١٤٠٦هـ – ١٩٨٦م)، (ط١). الحديث موضوع [المجلة].

(٣) الكتاني، نفس المصدر، (١٢٠/٢)، وأم سلمة هي أسماء بنت يزيد بن السكن كانت تسمى خطيبة النساء وكانت من ذوات العقل والدين وهي (رسول جماعة نساء المسلمين) إلى رسول الله ﷺ لسؤاله عن بعض ما يتعلق بالنساء، شهدت اليرموك، وقتلت تسعة من الروم، انظر ابن حجر، «الإصابة بهامشها الاستيعاب»، (٢٣٤/٤–٢٣٥، ٢٣٧–٢٣٨). والحديث المذكور لايثبت أيضا [المجلة].

(٤) الكتاني، المصدر السابق، (١٢٠/٢).

فقد أخرج أبوداود أن النبي ﷺ عندما سأل مجموعة من النساء عندما أردن الخروج في غزوة حنين أجبن بقولهنّ: «وخرجنا نغزل الشعر ونعين في سبيل الله»[1].

بل كانت الصحابيات أكثر استعداداً واهتماماً بالغزل والحياكة، فهذه أم عمارة تعد عصائب علّقتها في وسطها أعدّتها لإسعاف الجرحى وربط جروحهم[2].

وقد أهدت إحدى الصحابيات شملة[3] حاكتها بيدها إلى النبي ﷺ[4].

بهذا الوعي لدور المرأة في خدمة المجتمع المسلم كانت المرأة المسلمة تقوم بهذه الأعمال الطوعية في توظيف طاقاتها المتنوعة؛ للاستفادة من خبرة غزل الصوف أو الشعر أو القطن وتصنيعه لخدمة الأغراض الاجتماعية وغيرها.

ب- حياكة الحصر: من ورق النخيل وغيره، لاستعمالها في فرش البيوت أو المسجد أو استعمالها في الأغراض النافعة المختلفة، ففي معركة أحد أخذت السيدة فاطمة رضي الله عنها قطعة حصير فأحرقتها ثم داوت بها جرح رسول الله ﷺ[5]، وهذا يدل على حمل الحصر في الغزوات واستخدامها لمقاصد شتى، مثل افتراشها في الخيام للجلوس أو النوم عليها.

ج- دبغ الجلود وتصنيعها: وهذه الصناعة كانت وستبقى لازمة للإنسان؛ لاستكمال احتياجاته اليومية، وهي تحتاج إلى خبرة وبراعة، وقد ندب الشرع

---

(١) نفس المصدر، (٢/١١٥)، وانظر «مختصر أبوداود» للمنذري: (٣/٣٧٩).

(٢) انظر ابن سعد، «الطبقات الكبرى»، طبعة دار الشعب بمصر، (٨/٣٠٢).

(٣) الخزاعي، «تخريج الدلالات السمعية»: (٧٢٠)، والشملة: كساء غليظ من الصوف أو الشعر أشبه بالعباءة ويتزر بها كذلك، انظر لسان العرب، طبعة دار المعارف بمصر: (٣/٢٣٣١-٢٣٣٢).

(٤) البخاري، «الجامع الصحيح»، كتاب الجنائز، (٢/٧٨)، وانظر الخزاعي، «الدلالات»: (٧٢٠).

(٥) البخاري، «الجامع الصحيح»، (٥/١٢٩-١٣٠).

لاستخدام الجلود لقول رسول الله: (هلاّ استمتعتم بإهابها)[1]، وفي رواية مسلم: (هلا أخذتم إهابها فدبغتموه فانتفعتم به)[2]، فجعل عملية الدباغ مطهرة لجلود الميت من الحيوانات إلا الكلب والخنزير[3]، ثم إن الحديث ورد في شاة لمولاة ميمونة زوجة النبي ﷺ[4].

وانطلاقاً من هذا التوجيه النبوي الذي عزز فيه خبرة حياتية، وصناعة مهمة، فإن الصحابيات كن من أوائل من اهتم بذلك، للاستفادة من الجلود واستعمالها فراشاً في البيت، أو أردية تلبس في البرد فضلاً عن تصنيعها أحذية، أو أوعية لحفظ المأكولات أو أسقية لحفظ الماء والسمن وغيرها.

وكانت كثير من الصحابيات يصنعن ذلك ويتصدقن به إسهاماً في خدمة المجتمع المسلم.

وقد برع في هذا التخصص مجموعة من الصحابيات، وبخاصة زوجات النبي ﷺ، وعلى رأسهن السيدة **زينب بنت جحش**؛ حيث كانت صناع اليدين، فكانت تدبغ وتتصدق[5] بعد تصنيع الجلود وبيعها.

---

(١) البخاري، «الجامع الصحيح»، كتاب الأطعمة، (٦/٥٢).

(٢) النووي، «شرح صحيح مسلم»، (٤/٥٢).

(٣) وهبة الزحيلي، «الفقه الإسلامي وأدلته»، (١/١٠١).

(٤) انظر ابن الرسام، «نصيحة النساء»، (٢٢٦)، رسالتي للدكتوراه تحت الطبع. وميمونة بنت الحارث الهلالية أم المؤمنين أخت أم الفضل زوجة العباس لبابة الكبرى لأمها وأبيها تزوجها رسول الله سنة سبع كان اسمها برّة فسماها رسول الله ﷺ ميمونة، خطبها في عمرة القضاء وعقد عليها ودخل بها بسرف بعد إحلاله من الإحرام لأن قريش رفضت أن يتزوج في مكة خوف بقائه مدة أطول في مكة، وتوفيت في نفس الموضع بسرف سنة ستين للهجرة وهي آخر أمهات المؤمنين وفاة رضي الله عنها، انظر «الإصابة» بهامشها الاستيعاب، (٤/٤١١-٤١٣)، والاستيعاب، (٤٠٤-٤٠٨).

(٥) ابن حجر، «الإصابة»، (٤/٣١٤)، والكتاني، «التراتيب»، (٢/٥٦). وهي زينب بنت جحش الأسدية أم المؤمنين نزلت في زواجها عدة تشريعات:

=

وكذلك السيدة **سَوْدَة بنت زَمْعة** رضي الله عنها، وهي أكبر زوجات النبي ﷺ سناً، وكانت قد تنازلت لعائشة رضي الله عنها عن ليلتها وتوجهت للعبادة والإنفاق في سبيل الله، فكانت بارعة في الدباغة وبخاصة في دباغة الجلود الطائفية: وهي الجلود القادمة من مدينة الطائف، ويبدو أنها كانت جلود متميزة تحتاج إلى خبرة في طريقة دبغها، فبرعت بذلك السيدة سودة رضي الله عنها[1]، ولعلها كانت تبيع هذه الجلود لتنفق من ثمنها.

ومن المتخصصات البارعات في الدباغة الصحابية الجليلة أسماء بنت عميس.

روى ابن سعد[2]: أنه في يوم استشهاد جعفر بن أبي طالب -زوجها- في مؤتة كانت أسماء مشغولة بدباغة أربعين إهاباً من أدَم، وأنها عجنت عجيناً وأخذت أولادها فغسلت وجوههم ودهنتهم استعداداً لاستقبال جعفر، فدخل عليها رسول الله فطلب رؤية أبناء جعفر، فجاءت بهم أسماء إليه فضمّهم وشمّهم ثم ذرفت عيناه فبكى ﷺ، وأخبرها باستشهاد جعفر رضي الله عنه.

- زوجها رسول الله لزيد بن حارثة لكسر العرف الجاهلي في عدم تزويج النساء القرشيات للموالي أو الرقيق سابقاً.
- أمره تعالى بزواجها بعد طلاقها من زيد لكسر عرف جاهلي آخر وهو حرمة زواج المتبني بزوجة متبناه لأن زيد كان يسمى في الجاهلية زيد بن محمد حتى نزل قوله تعالى: ﴿ادعوهم لآبائهم﴾ فألغي التبني.
- نزل تشريع الحجاب عند زواجها، وكانت تفخر بأنها ابنة عمة النبي وأن الله زوجها للنبي ﷺ وكانت صالحة صوامة قوامة وكانت أول نساء النبي ﷺ لحوقاً به لقوله: (أسرعكن لحوقاً بي أطولكن يداً) بمعنى كثرة التصدق، توفيت سنة عشرون للهجرة، انظر ابن حجر، «الإصابة بهامشها الاستيعاب»، (٣١٣/٤-٣١٧).

(١) نفس المصدر، (٢٨٦/٤)، الكتاني، نفس المصدر، (٥٧/٢). هي سودة بنت قيس القرشية العامرية أم المؤمنين، وهي أول امرأة تزوجها رسول الله بعد خديجة، وكان لها مزاحها مع النبي ﷺ قالت له يوماً: صليت خلفك الليلة فركعت بي حتى أمسكت بأنفي مخافة أن يقطر الدم..!! فضحك ﷺ، توفيت سنة (٥٤هـ)، انظر «الإصابة» بهامشها الاستيعاب، (٣٢٣/٤، ٣٣٨-٣٣٩).

(٢) «الطبقات»، (٢٠٦/٨).

د- صناعات أخرى: وكانت هناك صناعات أخرى تقوم بها الصحابيات رضي الله عنهن لها مردود اجتماعي، إما بالتصدق بثمنها وإنفاقه، أو بإدخال بعض الصناعات الجديدة إلى المجتمع المسلم تستخدم في خدمات اجتماعية.

ومن الصناعات التي كانت يُتصدق بثمنها صناعة خَرْز الجلود[١]، وكان هذا مما برعت به زينب بنت جحش أم المؤمنين رضي الله عنها[٢]، حيث كانت تصنع الجلود بخياطتها خرزاً فتصنع الوسائد، أو الأفرشة فهذه السيدة فاطمة كان في جهاز عرسها وسادتان من جلد، وأهاب كبش كان يستعمل للنوم أو يستعمل لإجلاس الضيوف أو للصلاة عليه[٣].

ومن الصناعات الجديدة التي أدخلتها أسماء بنت عميس إلى المدينة هي صناعة: (**غطاء النعش**) الذي يشبه هودج العروس، وقد تعلمت صناعته من نصارى الحبشة[٤]، وكانت أول من صنع لها النعش هي السيدة فاطمة رضي الله عنها. وذلك أن السيدة فاطمة رضي الله عنها قبل موعد وفاتها الذي ذكره لها والدها ﷺ تشكت إلى أسماء بنت عميس: أنها تخاف لو وضعت على النعش فستصف الأكفان

---

(١) الخرز هو خياطة الجلود، والآلة التي تستعمل في ذلك هي المخرز والصانع الذي يقوم بصناعة الجلود يسمى خرازاً، انظر، ابن منظور، ((لسان العرب))، (١١٣/٢).

(٢) انظر ابن حجر، ((الإصابة))، (٣١٤/٤)، الكتاني، ((التراتيب الإدارية))، (٥٢/٢).

(٣) انظر ابن سعد، ((الطبقات))، (١٧/٨)، وابن الرسام، ((النصيحة))، (١٩٠).

(٤) ابن سعد، نفس المصدر، وانظر ابن عبدالبر، ((الاستيعاب بهامش الإصابة))، (٣٧٩/٤)، وكانت أسماء بنت عميس من المهاجرات إلى الحبشة هاجرت مع زوجها جعفر بن أبي طالب وهي أخت ميمونة بنت الحارث زوج النبي ﷺ لأمها وأخت لبابة لأمها وكن تسع أخوات لأم، وست أخوات لأم وأب، وهي التي فاخرها عمر بن الخطاب رضي الله عنه بالهجرة للمدينة وأن أهل الحبشة لا هجرة لهم قامت وسألت النبي ﷺ فقال لها: (لكم هجرتان..!!) وبعد استشهاد جعفر زوجها رسول الله لأبي بكر، فولدت له محمداً ثم مات عنها فتزوجها علي فولدت له عون ويحيى، انظر ابن حجر، ((الإصابة وبهامشها الاستيعاب)) لابن عبدالبر، (٢٣١/٤، ٢٣٤-٢٣٦).

جسمها!! ذكرت ذلك لفرط حيائها وخجلها..!

فطمأنتها أسماء بنت عميس رضي الله عنها بأنها ستصنع لها غطاءً رأت النصارى في الحبشة يستعملونه في جنائزهم، فأحضرت جرائد النخل الرطبة فجعلتها على شكل القوس ثم ألبستها قماشاً تغطي به النعش فعندما رأت فاطمة رضي الله عنها ذلك رضيت به، وعندما توفيت غطي نعشها به فكان كرامة لها، وصنع بعد ذلك لزينب بنت جحش رضي الله عنها[1].

وبذلك نرى إسهام المرأة المسلمة في تعلم خبرات شعوب وأديان أخرى، ونقلها إلى المجتمع الإسلامي عندما لا تتعارض مع حكم شرعي بل يكون فيها فائدة وتحقق مقصد شرعي.

٣- أنشطة وخدمات اجتماعية لخدمة البيئة ورعايتها: وكان للجمعية النسائية الخيرية في المدينة أنشطة أخرى مهمة تقوم بها لخدمة المجتمع المسلم وتنميته والعناية به، ومن ذلك:

أ- العناية بالمسجد ونظافته وتجميله:

وكان هذا من الأنشطة التي تقوم بها المرأة المسلمة في خدمة المسجد، وممن عرف بهذه الوظيفة: محجنة رضي الله عنها وكنيتها أم محجن، وهي امرأة حبشية اتهمها قومها بالسرقة وهي بريئة فتركتهم وجاءت إلى النبي ﷺ وأسلمت، وسمح لها أن تسكن في طرف من ساحة المسجد، فاتخذت لها حِفْشاً وهوخباء يشبه القُبة من الخوص أو غيره، وكانت تشارك نساء الصحابة أنشطتهن، فكانت تُخرج القذى، والعيدان، والخرق، وتكنس المسجد، وكانت كثيراً ما تزور السيدة عائشة وتحدثها

(١) انظر الكتاني، ((التراتيب الإدارية))، (١٦٦/٢)، وابن عبدالبر، ((الاستيعاب بحاشية الإصابة))، (٣٧٨/٤).

بقصة إسلامها، وعندما توفيت عتب النبي ﷺ على الصحابة لأنهم لم يخبروه بموتها فذهب إلى قبرها فصلى عليها مع الصحابة وذلك لمكانتها ودورها المهم في تطهير المسجد والعناية بمظهر النظافة فيه(١).

ومن مظاهر الاعتناء بالنظافة كذلك: نهي رسول الله عن التنخم في المسجد، واستعمال طرف الثوب أو قطعة خاصة من القماش وسمى رسول الله ﷺ: (البزاق في المسجد خطيئة وكفارتها دفنها)(٢).

والنهي كذلك عن التبول في المسجد صيانة له من النجاسة(٣).

ومن جوانب اهتمام الرسول ﷺ بتجميل المسجد وتطوير ضرورياته استعانته بالنجارين والصناع، لذلك عندما قالت له المرأة الأنصارية: «يارسول الله ألا أجعل لك شيئاً تقعد عليه؟؟ فإن لي غلاماً نجاراً»، قال ﷺ: (إن شئت...)، فعملت له المنبر، فلما كان يوم الجمعة قعد النبي ﷺ على المنبر الذي صنع له(٤).

ب- إقامة الأحفال في المناسبات والإنشاد والغناء فيها:

وكان هذا دور آخر تقوم به النساء المسلمات في المجتمع الإسلامي في الصدر الأول، وهنّ بذلك يضعن الإطار المشروع لهذا الجانب الاجتماعي المهم على ضوء توجيه المصطفى ﷺ «وهذا مظهر من مظاهر شمول الشريعة وواقعيتها، حيث تحكم جميع أفعال الإنسان وتشرّع حكمها في هذه الأفعال بالطلب أو بالحظر أو الأباحة، دون إغفال لطبيعة الإنسان وما جُبل عليه، ودون إغفال لطبيعة الحوادث والوقائع

(١) البخاري، (١/١١٣،١١٦،١١٨)، وانظر الكتاني، «التراتيب»، (٢/٨٧-٨٩).

(٢) نفس المصدر، (١/١٠٥-١٠٧).

(٣) نفس المصدر، (١/٦١-٦٢).

(٤) نفس المصدر، (١/١١٥-١١٦)، وانظر التلمساني، «تخريج الدلالات السمعية»، (٧٢٤).

والمناسبات التي يخالطها الإنسان أو تمر به، ولهذا كله كان في اللهو واللعب حظر وإباحة»[1].

وقد كانت المرأة في المجتمع الأول تمارس دورها في الحياة على ضوء هذا المنهج الرباني الذي شرع فيه ما يلبي طبيعته البشرية ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [تبارك:١٤] الخبير بالنفس الإنسانية، وحاجاتها الفطرية مثل: إظهار السرور، والمزاح، وملاعبة الرجل زوجته، وغيرها، وكل هذا محض جبلّة جُبل عليها الإنسان، وفي ترويحها إعانة على الجد، وعامل مهم في إيجاد التوازن النفسي في بناء الإنسان، وقد مرَّ بيان بعض جوانب هذا في مفهوم اللعب. فاللهو دواء للقلوب من داء الإعياء والملال، وقد ثبت في نصوص كثيرة إباحته، بل رأيناه في أحوال المجتمع الإسلامي في المدينة في صور شتى: في البيوت، وفي بيت النبي ﷺ خاصة، وفي المناسبات: كالأعياد والزواج، والاستقبالات لرسول الله ﷺ في هجرته من مكة للمدينة أو عند رجوعه من الغزوات.

والمباح لا ينبغي أن يستكثر منه كما لا يستكثر من الدواء، فمباشرة اللهو على هذه النية: وهي ترويح القلب وإعانته على الجد يصير قُربة[2].

ويصير اللهو محظوراً إذا اقترن به ما لا يجوز شرعاً، كالخنا، والفحش، أو وصف محاسن النساء، أو وصف الخمر، أو مايثير شهوة، أو أن يكون فيه كذب على الله ورسوله، أو يرافقه قمار، أو تناول المحرمات، أويؤدي إلى اختلاط الرجال بالنساء بصورة تؤدي إلى فتنة[3].

---

(١) أستاذنا الدكتور زيدان، «المفصل في أحكام المرأة»، (٤/٥٥).

(٢) أستاذنا الدكتور زيدان، نفس المصدر، (٤/٧٨،٨٢)، وانظر ابن حجر، «فتح الباري شرح صحيح البخاري»، (٧/٢٦١)، والكتاني، (٢/١٢٦-١٢٧).

(٣) نفس المصدر، (٤/٨٨،٨٩)، الكتاني، (٢/١٢٩)، وانظر ابن حجر، «فتح الباري شرح صحيح البخاري»، =

وأما الأحفال التي كانت تشارك فيها المرأة في عصر النبوة فهي:

١- الأعراس وما يتعلق بها:

وقد ندب رسول الله ﷺ إجابة الداعي إلى العرس، فلذلك استجاب رسول الله لدعوة أبي أسيد الساعدي من الأنصار[١] ورد عنه ﷺ أن: (من ترك الدعوة فقد عصى الله ورسوله)[٢]، ولذلك كان ابن عمر رضي الله عنهما «يأتي الدعوة في العرس وغير العرس وهو صائم»[٣].

وكان النساء والصبيان يذهبون للأعراس في جماعات؛ لإهداء العروس إلى زوجها وإظهار السرور عند رفقتها، قد رأى النبي ﷺ نساءً وصبياناً مقبلين من عرس فقام مرحّباً وممتناً، فقال: (اللهم أنتم من أحب الناس إليَّ)[٤].

وقد كان النساء يتجمعن في بيت العروس ويغنين لها، وقد مر رسول الله ﷺ بنساء من الأنصار في عرس لهن وهن يغنين في مدح العريس بقولهن[٥]:

وأهدى لها كبشاً تنحنح في المربد
وزوجك في البادي ويعلم ما في غد

فقال ﷺ: (لا يعلم ما في غد إلا الله)، وفي ذلك تصحيح لما يقال في الأعراس ليكون مشروعاً.

(٤/٤٤٣).

(١) ابن حجر، «الإصابة»، (٣٤٤/٤)، شهد بدراً وأحداً وما بعدها وكانت عنده راية بني ساعدة يوم الفتح.

(٢) البخاري، «الجامع»، (١٤٤/٦).

(٣) نفس المصدر، (١٤٣/٦-١٤٤).

(٤) نفس المصدر، (١٤٤/٦).

(٥) الكتاني، «التراتيب»، (١٢٩/٢).

وحضر رسول الله ﷺ[1] زواج الفارعة[2] بنت أبي أمامة أسعد بن زرارة سيد الأوس الذي أوصى النبي ﷺ ببناته، فزوج رسول الله الفارعة لنبيط بن جابر من بني النجار، وكانت أم نبيط تضرب بالدف[3] في جماعة من نساء الأنصار وتقول:

أتيناكم فحيّونا نحييكم
ولولا الذهب الأحمر ما حلّت بواديكم

فقال لها رسول الله قولي:

ولولا الحبة السمراء ما سَمنت عذاريكم

وفي ذلك دفع لشيمة الطمع، وتغيير التشبيه وربطه بنعمة من نعم الله وهي الحنطة، وأن ذلك أكثر مطابقة لواقع الحال وهو الزواج، وذلك من بلاغته ﷺ ولربط المسلم بالله في ذكره وفكره ولهوه.

ودخل رسول الله في عرس الربيع بنت معوذ بن عفراء[4]، وجلس على فراشها وكانت البنات يضربن بالدف ويذكرن مآثر الأنصار في بدر، ولعل من الضاربات بالدف أختها الفريعة بنت معوذ، وهي التي روت الرخصة في الغناء وضرب الدف في العرس، وكانت مجابة الدعوة[5].

الصحابيات المشاركات في أناشيد الأفراح:

ومن أشهر الصحابيات اللاتي كن يغنين ويضربن الدف في الأعراس:

---

(١) ابن حجر، «الإصابة»، (٤/٥٠١-٥٠٢).
(٢) نفس المصدر، (٤/٣٨٨)، وابن سعد، (٨/٣٢٢).
(٣) نفس المصدر، (٤/٥٠٢)، وانظر الكتاني، (٢/١٣٨).
(٤) وهي من بني النجار من المبايعات تحت الشجرة وكانت تغزو مع رسول الله، ابن حجر، «الإصابة»، (٤/٣٠٠-٣٠١)، وانظر الكتاني، (٢/١٢٨).
(٥) «الإصابة»، (٤/٣٨٦)، والاستيعاب بحاشيتها، (٤/٣٨٧).

* أرنب المدنيّة: وهي التي طلب رسول الله ﷺ من عائشة أخذها إلى عرس الأنصار[1].

* أم نبيط: وهي نائلة بنت الحسحاس التي زفت عروساً من الأنصار[2].

* حمامة: وهي من جواري الأنصار وهي التي غنت عند عائشة يوم العيد[3].

* جميلة المغنية: التي سألت جابر بن عبدالله عن جواز الغناء[4].

* زينب الأنصارية: امرأة كانت تغني في المدينة[5].

* سيرين جارية حسان بن ثابت: التي أهداها له رسول الله وهي هدية المقوقس لرسول الله[6].

* الفريعة بنت معوذ: وكانت مجابة الدعوة وهي أخت الربيع بنت معوذ[7].

والغناء المنسوب إليه هؤلاء النساء ليس هو الغناء كمهنة وإنما كن ينشدن في الأعراس تطوعاً.

---

(١) ابن حجر، ((الإصابة))، (٤/٢٢٦).
(٢) نفس المصدر، (٤/٥٠١-٥٠٢).
(٣) ابن حجر العسقلاني، ((الإصابة)): (٤/٢٧٤).
(٤) نفس المصدر، (٤/٢٢٦)، وانظر الكتاني، ((التراتيب الإدارية)): (٢/١٢٤).
(٥) نفس المصدر، (٤/٣٢٠)، والكتاني، (٢/١٣٢).
(٦) نفس المصدر، (٤/٣٣٩)، وانظر الكتاني: (٢/١٢٥).
(٧) نفس المصدر، (٤/٣٨٦)، وانظر الكتاني، (٢/١٢٥).

الصحابيات وفن التجميل:

وكان هناك بعض الصحابيات متخصصات في تزيين العروس احترافاً أو تطوعاً فيمشطنها، ويضعن الزينة لها على عرف زمانهن، وكان مصطلح (الماشطة) أو (المقَيّنة) يطلق عليهن، والتقيُّن التزين، وتطلق كلمة قينة على الإماء عامة، وقد تطلق على الأمة المتخصصة في الغناء[1].

وقد اشتهرت بعض الصحابيات بتخصصهن في تزيين النساء في الأعراس وغيرها، ومنهن:

- أم رَعْلة القُشرية[2]: وفدت على النبي ﷺ وكانت ذات لسان وفصاحة وسألت رسول الله عن مشروعية عملها وقالت: إني امرأة مقينة أقين النساء وأزينهن لأزواجهن، فهل هو حوب فانبط عنه (أي هل هو إثم فأتركه)، قال لها: (يا أم رعلة قينيهن..!! وزينيهن إذا كسدن..!!)[3].

- أم زفر حسانة المدنية[4]: وهي ماشطة خديجة رضي الله عنها قالت السيدة عائشة: ((جاءت عجوز إلى النبي ﷺ، فقال لها: من أنت؟ قالت أنا جثامة المدنية، وكان النبي ﷺ غير اسمها إلى حسانة، فرحب بها رسول الله ترحيباً شديداً تعجبت منه السيدة عائشة، فسألته عنها فقال: (إنها كانت تأتينا أيام خديجة وإن حُسْنَ العهد من الإيمان)[5]، يقصد الوفاء والبر لها لأنها كانت تتعاهدهم بزياراتها في مكة.

- أسماء بنت يزيد بن السكن الأنصارية: كانت من النساء اللائي يهدين (يزففن)

(١) انظر، ابن منظور، ((لسان العرب))، طبعة دار المعارف بمصر، (٣٧٩٨/٥).
(٢) ابن حجر، ((الإصابة))، (٤٤٩/٤-٤٥٠).
(٣) نفس المصدر، (٤٥٠/٤)، وانظر الكتاني، (١١١/٢).والحديث غير ثابت [المجلة].
(٤) نفس المصدر، (٤٥٣/٤،٢٧٣).
(٥) نفس المصدر، (٢٧٣/٤).

السيدة عائشة إلى النبي ﷺ وهي التي قينت (زينت) عائشة رضي الله عنها[1]. وكان يقال لها خطيبة النساء، وكانت هي مندوبة النساء إلى رسول الله ﷺ[2].

– آمنة بنت عفان: وهي أخت عثمان بن عفان رضي الله عنه أسلمت يوم الفتح، وكانت ماشطة، ومتخصصة في التزيين في الجاهلية والإسلام[3]، وكان زوجها الحكم بن كيسان متخصصاً في الحجامة[4].

– بركة بنت ثعلبة الحبشية أم أيمن: وهي مرضعة النبي ﷺ وحاضنته، وقال عنها: (من أراد أن يتزوج امرأة من أهل الجنة فليتزوج أم أيمن)، فتزوجها زيد بن حارثة وكان أصغر منها بكثير، وكانت تشترك في الغزوات تداوي الجرحى[5]، وكانت قد قينت (زينت) عائشة يوم زواجها في المدينة[6].

– بسرة بنت صفوان بن نوفل القرشية بنت أخي ورقة بن نوفل: قال عنها الشافعي:

لها سابقة قديمة، وكانت من المبايعات، وهاجرت مع مصعب بن عمير، وكان من نشاطها الاجتماعي أنها تمشط النساء وتزينهن بمكة[7].

---

(١) ابن حجر العسقلاني، «فتح الباري شرح البخاري»، طبعة المكتبة السلفية بمصر، ط٣، (١٣١/٩).

(٢) ابن عبدالبر، «الاستيعاب بحاشية الإصابة»، (٢٣٧/٤)، وانظر ابن حجر، «الإصابة»، (٢٣٥/٤-٢٣٦).

(٣) ابن حجر، «الإصابة»، (٢٥٥/٤)، وانظر الكتاني، «التراتيب»، (١١١/٢).

(٤) ابن حجر، «الإصابة»، (٣٤٧/١-٣٤٨). والحجامة: مص الدم وهي عملية لتخفيف الصداع غالباً، والمقصود منه تقليل ضغط الدم، وتتم بطرق مختلفة، انظر الخزاعي، «تخريج الدلالات السمعية»، (٧٥٦).

(٥) انظر «الاستيعاب بحاشية «الإصابة»، (٢٥٠/٤-٢٥١)، وابن حجر، «الإصابة»، (٤٣٢/٤-٤٣٤)، السهيلي، «الروض الآنف»، (٥٧٧/٦-٥٧٨)، ابن سعد، «الطبقات»، (١٦٣/٨).

(٦) الكتاني، «التراتيب الإدارية»، (١١١/٢).

(٧) ابن حجر، «الإصابة»، (٢٥٢/٤)، والكتاني، «التراتيب» (١١١/٢).

- الرميصاء بنت ملحان الأنصارية[1]: وهو أشهر أسمائها ولكنها اشتهرت بكنيتها أم سليم[2]، وهي أم أنس بن مالك، وقصة زواجها مشهورة، حيث جعلت مهرها إسلام المتقدم لزواجها وهو أبوطلحة[3]، وكانت هي التي مشطت وزينت صفية بن حيي زوج رسول الله ﷺ وجملتها وعطرتها، وقد بنى بها رسول الله بعد انتهاء عدتها في طريقه إلى المدينة بعد فتح خيبر، وكانت النساء المشاركات في الغزوة واللاتي عددهن يربو على العشرين، قد زففنها إلى قبة أو خيمة لرسول الله ﷺ، وكان أبوأيوب الأنصاري يقوم على حراسته[4].

٢- الاستقبالات العامة:

* استقبال النبي ﷺ عند هجرته:

ومن المشاركات الاجتماعية الأخرى التي كانت تشارك فيها المرأة هي الاستقبالات مثل استقبال النبي ﷺ عند وصوله المدينة المنورة مهاجراً يصاحبه أبوبكر رضي الله عنه، وقد استقبلهما زهاء خمسمائة من الأنصار، فأقبل رسول الله ﷺ وصاحبه بين أظهرهم، يحيطون به من كل جانب، وقد لبسوا السلاح فخرج أهل المدينة حتى أن العواتق (الصبايا مقاربات البلوغ) لَفوق البيوت يتراءينه (يتطلعن للنظر إلى رسول الله ﷺ) يقلن أيهم هو..؟ أيهم هو..!؟ فيقول أنس بن

---

(١) ابن حجر، ((الإصابة))، (٤/٣٠٨).

(٢) ابن عبدالبر، ((الاستيعاب بحاشية الإصابة))، (٤/٤٥٥-٤٥٦)، وانظر ابن حجر، ((الإصابة))، (٤/٤٦١-٤٦٢).

(٣) هو زيد بن سهل الأنصاري، قال عنه ﷺ صوت أبي طلحة في الجيش خير من مائة، ابن حجر، ((الإصابة))، (٤/٥٦٦-٥٦٧، ١١٣).

(٤) السهيلي، ((الروض الآنف))، (٦/٥١٤)، وابن حجر، ((الإصابة))، (١/٣٤٧).

مالك: فما رأيناه منظراً شبيهاً به يومئذ[1].

وجعل النساء والصبيان والولائد يقلن:

طلع البـدر علينـا مـن ثنيـات الـوداع
وجب الشكر علينـا مـا دعـا لله داع
أيها المبعوث فينا جئت بـالأمر المطـاع

وما أن وصل إلى دار أبي أيوب واختاره منزلاً حتى خرجت مجموعات من جـوار بني النجار يضربن بالدفوف وينشدن:

نحـن جَـوارٍ مـن بـني النجـار يـا حبذا محمـد مـن جـارِ

فقال رسول الله ﷺ: (أَتُحبيني!؟).

قلن: نعم يارسول الله. فقال: (وأنا والله أحببكن.. قالها ثلاثاً)[2].

* استقبال النبي صلى الله عليه وسلم عند الرجوع من الغزو:

وعندما رجع رسول ﷺ من غـزوة تبـوك[3] استقبلته النسـاء والأولاد بـالدفوف ينشدن نفس الأبيات السابقة:

طلع البدر علينا من ثنيات الوداع

وقد استقبلته جارية سوداء عند رجوعه من إحدى المغازي، وقالت: يارسول الله

(١) ابن كثير، ((السيرة النبوية))، (٦٩/٢)، وانظر الصالحي، ((سبل الهدى والرشاد))، طبعة المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية بمصر، (١٣٩٥هـ - ١٩٧٥م)، (٣٨٥/٣-٣٨٦)، وانظر الكتاني، ((التراتيب))، (١٢٩/٢-١٣٠)، وانظر صحيح مسلم، كتاب الزهد، باب الهجرة: (٢٣٧/٨).

(٢) انظر، الصالحي، سبل الهدى والرشاد، (٣٩٠/٣)، وانظر ابن حجر، ((فتح الباري))، (٢٦١/٧).

٣) ابن القيم، ((زاد المعاد))، (١٠/٣)، وانظر الكتاني، ((التراتيب))، (١٣١/٢). ولعل هـذا أثبـت مـن الأول والله أعلم [المجلة].

إني كنت نذرت إذا ردك الله سالماً أن أضرب بين يديك بالدف وأتغنى، فقال لها رسول الله ﷺ: (إن كنت نذرت فاضربي) وقال الترمذي عن هذا الحديث حسن صحيح. وذلك لإظهار الشكر على نعمة سلامة رسول الله ﷺ[1].

٣- حضور الاجتماعات الاستثنائية والهامة:

كان النبي ﷺ إذا حدث حادث مهم، أو احتاج الناس إلى تنبيه على مسألة خاصة، أو أحكام جديدة يأمر فينادي للصلاة (الصلاة جامعة)، أو (ياأيها الناس)...، فيقبل الناس إلى المسجد رجالاً ونساءً ليستمعوا ما استجد من أمور في مجتمع المدينة أو غيرها، وكان هذا الأسلوب يقوم مقام وسائل الإعلام في هذا العصر حيث يسهل في زماننا تبليغ البيانات على الأمة، أو التنبيهات المتنوعة التي تتعلق بحياتهم اليومية، أو معالجة بعض الظواهر السلبية التي تشيع في المجتمع. فكان المسجد هو المكان الذي تبلغ من خلال منبره كل هذه الأمور وعلى لسان السلطة العليا، وكان رسول الله ﷺ هو الذي يقوم على رأس إدارة الدولة في المجتمع المدني، وبالتالي فتبليغاته التي تتعلق بالتشريع أو الإشارة إلى اليوميات السياسية أو العسكرية أو الاقتصاد أو الاجتماعية كانت تنطلق من المنبر في مسجده المبارك.

وكانت المرأة مخاطبة هي كذلك لأنها مكلفة شرعاً، ومسئولة مسئولية فردية، ومسئولية جماعية، فلذلك كانت تسرع إلى هذه الاجتماعات مثلها مثل الرجال، وقد عبّرت أم سلمة زوجة النبي ﷺ عن هذا المعنى في حوارها مع جارية لها: فكانت تحدث أنها سمعت النبي ﷺ[2] يقول على المنبر وهي تمشط شعرها: (أيها الناس...!!)

( ) ((السنن))، الترمذي، باب المناقب، وانظر ((تحفة الأحوذي)) للمباركفوري: (١٠/١٧٧-١٧٨)، نشر المكتبة السلفية بالمدينة المنورة، تصحيح وضبط عبدالرحمن عثمان، وانظر الكتاني، نفس المصدر: (٢/١٣١)، وانظر الصنعاني، ((نيل الأوطار)): (٨/١٠٥-١٠٦).

( ) وقد بوب الكتاني باباً بعنوان: (المنادي) وذكر نماذج من هذه الاجتماعات التي ينادي عليها أو التي يرسل =

فقالت لماشطتها التي تمشط شعرها: استأخري -ابتعدي- عني.. قالت أم بركة: قالت الجارية: إنما دعا الرجال ولم يدع النساء.. قالت -أم سلمة-: أنا من الناس..!!

فقد استشعرت أم سلمة مسئوليتها، وأن الخطاب موجه لها مع أنه عام لا يتوجه إلى فرد بذاته، وتركت أهم ما يشغل كثير من النساء وهو زينتها..!!

وتوجهت مسرعة ملبية النداء لتستمع إلى ما جدّ واستجد من أمور المسلمين فتشارك في الاستماع أو إبداء الرأي، أو الأداء للأمر المطلوب.

وورد كذلك عن مندوبة النساء وخطيبتهن أسماء بنت زيد بن السكن، والتي تكنى أم سلمة كذلك من الأحاديث في قضايا تتعلق بالمرأة خاصة ما لها وما عليها من أحكام وتكاليف محددة؛ ليدل دلالة واضحة على مشاركتها الفعالة في قضايا المجتمع عامة والمرأة بخاصة، وقد سجل القرآن الكريم مواقف أم سلمة رضي الله عنها وقد بينت أسباب نزول الآيات ذلك[1]، والأسئلة التي سألتها أم سلمة نجد بعضها يطرح إلى الآن ومما يدل على أهميته، وأن أم سلمة كانت تسأل هذه الأسئلة لمعرفة حقوقها وواجباتها فهي أسئلة للعلم والعمل، وليست للمكابرة والجدل يدل على ذلك تسليمها لأمر الله عندما تلقت الجواب القاطع من رسول الله ﷺ. وأخذها له بقوة من غير تردد، وإنما تعبّداً لله الذي: ﴿يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ

منادياً ينبه عليها في الطرقات والأسواق ومن ذلك: ١- حادث كسوف الشمس نادى الصلاة جامعة. ٢- حديث الرهط الذين جاءوا إلى بيوت النبي يسألونه عن عبادته دعا النبي للصلاة لبيان وسطية الإسلام وتصحيح الأفهام. وأرسل منادياً ينادي بتحريم الخمر، أو بتحريم الحمر الأهلية وغيرها. انظر: ((التراتيب الإدارية))، (١/٢٩٠-٢٩٣).

(١) انظر مناع القطان: ((مباحث في علوم القرآن))، (٨٢-٨٣)، نشر الدار السعودية للنشر (١٣٩١هـ - ١٩٧١م)، ط١، وانظر الواحدي أبوالحسن علي بن أحمد، ((أسباب النزول))، (٢٦٨،١٠٣،١١٠)، نشر مكتبة عالم الكتب - بيروت (بدون تاريخ).

اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [الملك:١٤]، وهي بذلك تعطي القدوة لبنات جنسها في كل زمان ومكان في كيفية تلقي التكليف الرباني..!! شعارها في ذلك: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلاَ مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْراً أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلاَلاً مُّبِيناً﴾ [الأحزاب:٣٦].

ومن الأسئلة التي سألتها أم سلمة رضي الله عنها أم المؤمنين والمؤمنات:

- السؤال الأول:

قالت: قلت: يارسول الله! ما لنا نُذكر في القرآن كما يُذكر الرجال؟

فلم يرعني منه ذات يوم إلا نداؤه على المنبر وهو يقول: ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ والصَّائِمِينَ والصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيراً وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْراً عَظِيماً﴾ [الأحزاب:٣٥].(١)

- السؤال الثاني:

قالت: يارسول الله، لا أسمع الله ذكر النساء في الهجرة بشيء..؟ فأنزل الله: ﴿* فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لاَ أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنْكُمْ مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى بَعْضُكُم مِّن بَعْضٍ فَالَّذِينَ هَاجَرُواْ وَأُخْرِجُواْ مِن دِيَارِهِمْ وَأُوذُواْ فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُواْ وَقُتِلُواْ

---

(١) انظر السيوطي، ((الاتقان))، (٣٤/١)، نشر مكتبة مصطفى البابي الحلبي بمصر، (١٣٧٠هـ - ١٩٥١م)، ط٣، وانظر الواحدي، ((أسباب النزول))، (٢٦٨) ونسب السؤال لأسماء بنت عميس، الحديث صحيح عن أم سلمة أم المؤمنين [المجلة]

لأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ ثَوَاباً مِّن عِندِ اللَّهِ وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ﴾ [آل عمران:١٩٥][1].

- السؤال الثالث:

عن أم سلمة أنها قالت: تغزو الرجال ولا تغزو النساء، وإنما لنا نصف الميراث..؟[2].

فأنزل الله: ﴿وَلاَ تَتَمَنَّوْاْ مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبُواْ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبْنَ وَاسْأَلُواْ اللَّهَ مِن فَضْلِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً﴾ [النساء:٣٢][3].

بهذه الأسئلة قد بينت أم سلمة ما يدور في نفوس بنات جنسها من الصحابيات، وبالتالي فقد توجهت إلى رسول الله بهذه الأسئلة المهمة التي توضح مكانة المرأة ومقامها، وأنها هي والرجل سواء في توجه الخطاب القرآني، وسألت عن دور المرأة في أهم حدث في التاريخ الإسلامي ألا وهو الهجرة التي كانت فاصلاً بين مرحلتين مرحلة الصبر ومرحلة الجهاد، ومرحلة البناء العقائدي والأخلاقي ومرحلة بناء المؤسسات.

والسؤال الثالث كان أكثر تحديداً؛ لأنه يتعلق بالتكاليف العملية والمالية، الجهاد والميراث.. فنزل الجواب الذي يحدد تكاليف الرجل وتكاليف المرأة، وأن هذه التكاليف هي تكليف تخصص لا تكليف تفضيل فالجهاد والإنفاق على الزوجة

---

(١) انظر السيوطي، نفس المصدر، والواحدي: ((أسباب النزول))، (١٠٣). الحديث صحيح [المجلة].

(٢) حكم الجهاد بالنسبة للمرأة غير واجب جهاد التطوع أما إذا كان جهاد دفع وهو عندما يدخل العدو الوطن الإسلامي صار الجهاد واجباً في حق المرأة ولها أن تخرج من غير إذن زوجها.

(٣) انظر السيوطي، نفس المصدر، والواحدي، ((أسباب النزول))، (١١٠).

والعصبات خاص بالرجل، وما خص به فهو الأفضل له والمناسب لطبيعته ودوره في النظام الاجتماعي الإسلامي، وما خصت به المرأة من التكليف فهو الأفضل لها وفضلت به على الرجل، بالتالي فإن التغيير والتبديل في ثوابت الإسلام إخلال في الالتزام به وخروج على السنة الربانية التشريعية وأي تغيير في السنة التشريعية يعقبها خلل في بنية النظام الاجتماعي الإسلامي بل الإنساني، وما نراه ونلمسه من نتائج هذا الخلل في النظم غير الإسلامية دليل على ذلك ومظاهره تتجلى في التفكك الأسري، وفساد العلاقة الزوجية، وشيوع الجريمة والتشرد في الأطفال، مما حيَّر وأشغل علماء الاجتماع وعلماء النفس الغربيين.

وهناك نموذج آخر لصحابية جليلة وهي فاطمة بنت قيس القرشية[1] من المهاجرات الأول، وكانت ذا عقل راجح وهي زوجة أسامة بن زيد، وفي بيتها اجتمع الستة الشورى؛ لما قتل عمر رضي الله عنه وخطبوا خطبهم. هذه الصحابية النبيلة كما وصفها ابن عبدالبر قالت: ((عندما نادى المنادي ((نودي في الناس أن الصلاة جامعة فانطلقت فيمن انطلق من الناس، فكنت في الصف المتقدم من النساء، وهو يلي المؤخرين من الرجال))[2].

وهذا يدل على سرعة استجابتها لنداء المنادي إلى المسجد، بل ومدافعتها النساء للحضور والوقوف في الصف الأول للنساء لاستجلاء الأمر، أو يعني أنها بادرت بالحضور قبل غيرها.

(١) انظر ((الإصابة)) وبهامشها الاستيعاب، (٤/٣٨٣،٣٨٤).

(٢) مسلم بن الحجاج، ((الصحيح))، كتاب الفضائل، (٧/٦٧،١١٥)، وانظر: (٨/٢٠٣)، كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب في خروج الدجال.

ثانياً- إقامة دور الضيافة والإنفاق عليها:

وإضافة إلى الأنشطة الاجتماعية التي ذكرناها سابقاً، فإن المرأة المسلمة أسهمت في جانب فعال وعملي آخر في بناء المؤسسات الاجتماعية في المجتمع الإسلامي الناشيء: ألا وهو الإسهام في إقامة دور الضيافة والإنفاق عليها.

وقد كانت ظاهرة ضيافة الغرباء من ظواهر الكرم الذي عرف به العرب، ولكن هذه الظاهرة الاجتماعية في ظل المجتمع المسلم أخذت بعداً جديداً يضاف إلى البعد السابق، وهو البعد المؤسسي الذي ارتبط بقيام الدولة الإسلامية في المدينة، المؤسسة الكبرى التي تنظم أمور المجتمع وتنفذ سياسات الإسلام وشريعته.

لذلك فإنشاء الصفّة وجعلها داراً لضيافة المهاجرين ممن لا يراه أسرة معه، أو لا عريف له، أو العزاب منهم أو الغرباء منهم، كانت هذه المبادرة من الدولة الممثلة في شخص رسول الله ﷺ محفزاً للآخرين من الصحابة، مثل عبدالرحمن بن عوف (الذي أنشأ دار الضيفان الكبرى).

وكانت المرأة المسلمة تشعر بمسؤوليتها كذلك لذلك بادرت بعض الصحابيات إلى الإسهام في مشروعات الدولة الإسلامية الناشئة، وقامت بتنفيذها بحسب الطاقة والقدرة المادية، وقد تجلى ذلك بصورة أوضح في عام الوفود، حيث أقبلت القبائل إلى المدينة لإعلان إسلامها وولائها للدولة الإسلامية، أو للحوار ثم القرار، فكان النبي ﷺ يُنزل بعض الوفود في المسجد ويضرب لها قبة في ساحته، وبعضها في البيوت التابعة للدولة خارج المسجد، أو الإسهام بالاستضافة المؤقتة من قبل بعض أهل اليسار من تجار المسلمين وأغنيائهم، بل وفقرائهم، كما بينا سابقاً.

الصحابيات المتبرعات:

ومن الصحابيات اللائي أسهمن في بناء دور الضيافة والإنفاق على ضيوف

الدولة الإسلامية في المدينة:

أ- رملة بنت الحارث[1] بن ثعلبة: من بني النجار من الخزرج، كانت تكنى بأم ثابت وزوجها معاذ بن الحارث المعروف بمعاذ بن عفراء وهي من المبايعات الأوائل وزوجها ممن بايع في العقبة الأولى.

وقد تميزت دار رملة بالسعة وفيها حديقة واسعة فيها نخيل، وكانت تتسع لأعداد كبيرة من الضيوف، وقد تبرعت بها رملة فيما يبدو قبل غزوة الخندق؛ لأن النبي ﷺ سجن فيها بني قريظة وكان عددهم أربعمائة أو يزيد في بعض الروايات.

وقد نزلت فيها وفود كثيرة منها[2]:

- وفد سلامان في سبعة أفراد.
- وفد بني كلاب في ثلاثة عشر فرداً.
- وفد بني مرة في ثلاثة عشر فرداً.
- وفد بني فزارة.
- وفد بني عبد قيس.
- وفد بني تميم.
- وفد بني حنيفة.

وكان ذلك في وقت واحد.

ب- دار أم شَرَيك الأنصارية[3]: واختُلِف في اسم أبيها، وكانت امرأة غنية

(١) انظر ابن سعد، «الطبقات»، (٣٢٧/٨)، وابن حجر، «الإصابة وبحاشيتها الاستيعاب»، (٣٠٥/٤-٣٠٦).
(٢) انظر السهيلي، «الروض الأنف»، (٤٠٠/٧)، وانظر الكتاني، «التراتيب الإدارية»، (٤٤٦/١-٤٤٩).
(٣) انظر ابن حجر، «الإصابة وبحاشيتها الاستيعاب»، (٤٢٥/٤).

عظيمة النفقة في سبيل الله، وكانت دارها تستقبل الضيوف القادمين إلى المدينة، وهي التي أراد رسول الله الزواج بها، ولكنه لم يدخل لها لشدة غيرة نساء الأنصار.

ج- دار أم النعمان بن مقرن[1]: وكان بيتها كما قال عبدالله بن عباس رضي الله عنهما بيت بني مقرن من بيوت الإيمان، وكان النعمان قد استأذن النبي ﷺ أن يستضيف حكيم العرب قيس بن عاصم التميمي كان من دهاة العرب، وممن اشتهر بالحلم وسماه رسول الله سيد أهل الوبر، وقد كان من أخص ملازميه ليتعلموا منه الحلم الأحنف بن قيس رضي الله عنه، فأراد النعمان أن ينال شرف استضافته، وهو من سادات مزينة فيكون بذلك كفؤاً لاستقبال سيد تميم، وكان النعمان صاحب لواء مزينة في الفتح ومزينة جده، وهو الذي سميت باسمه القبيلة. وهذا كذلك من سياسة رسول الله الدعوية في إنزال الناس قيس بن عاصم سيد أهل الوبر وحكيم العرب وداهيتهم وسيد تميم في منزل هو صفوة قبيلة مزينة وأصلها، وذلك مما تسكن إليه النفس في معايير القبائل قبل الإسلام وبدأ إنزال الناس منازلهم بعد الإسلام.

المحور الثاني: تمويل المشروعات والمؤسسات الاجتماعية

شرع الله تعالى التشريعات لتنظيم الحياة على هدي ما شرع للعباد، ولتسير الحياة بحسب المنهج الرباني، وهذه التشريعات يكمِّل بعضها بعضاً، وتتناول النشاط الإنساني جميعه وبشموله روحياً، واجتماعياً، ومالياً، وتجارياً، وسياسياً، وغير ذلك من الأنشطة ونظمت هذه التشريعات مسؤولية المسلم فردياً وجماعياً.

---

(١) انظر ابن عبدالبر، ((الاستيعاب بهامش الإصابة))، (٣/٥٤٥-٥٤٨)، وانظر الكتاني، ((التراتيب الإدارية))، (٤٤٩/١).

ومن أهم هذه التشريعات التشريعات المالية؛ لأن الحياة لا تقوم ولا تنمو إلا بها.

فلذلك وصفها الله تعالى بأنها قوام المجتمع الإسلامي لأن المال عصب الحياة والمجتمعات والأفكار. وقد جعل التفريط بالأموال وعدم إنفاقها في الأوجه المحددة شرعاً، أو إنفاقها في جوانب غير مفيدة للمجتمع فائدة مباشرة وإيجابية جعل ذلك «سفهاً»[1]، أو عدم تدبير، فقال تعالى: ﴿وَلاَ تُؤْتُواْ السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللّهُ لَكُمْ قِيَاماً﴾ [النساء:٥]، ولذلك كان من مقاصد الشريعة الغراء حفظ المال، وشرعت التشريعات لضبط حركة المال في المجتمع، وليتوجه للبناء لا للهدم، ووضعت العقوبات لتوقف أنواع السفه عند حدها، ونُظّمت طرق تداول الأموال وإدراتها، ووضعت لها الوسائل التي تحفظ الحقوق بالكتابة والإشهاد عليها وكانت آية الدين أطول آية في القرآن؛ لأهمية القروض المالية في بناء عملية التنمية وضرورة حفظ حقوق المقرضين.

وقد شرع الله سبحانه وتعالى تشريعات مالية عدة منها ما كان على سبيل الفرض، ومنها ما هو على سبيل الاستحباب، وأما الإباحة فباب مفتوح لكل نشاط يصب في جوانب الخير المتنوعة.

ومن التشريعات المالية في النظام الإسلامي:

---

(١) السفه لغة: الخفة في العقل والحركة، ونقيض الحلم، والجهل. ابن منظور، «لسان العرب»، (٣/٢٠٣٢)، والسفيه: هو الذي يصرف ماله في غير موضعه، ويبذر في مصارفه، ويضيع أمواله يتلفها بالإسراف، وكذا من لا يزال يغفل في أخذه وعطائه ولم يعرف طريق تجارة. انظر مجموعة قواعد الفقه، رسالة التعريفات الفقهية، المفتي محمد عميم الإحسان المجددي، نشر مير محمد كتبخانة، آرام باغ - كراجي، (١٩٨٦): وانظر دكتور محمد رواس قلعجي ود. حامد صادق قنيبي، نشر إدارة القرآن والعلوم الإسلامية بكراتشي - باكستان، بدون تاريخ، (ص٢٤٥).

* الزكاة:

وكان على رأس الفروض المالية: الزكاة التي شرعها الله عبادة مالية تشكل ركناً من أركان الإسلام، يأخذها الإمام من الذين يملكون النصاب ليعيدها إلى الأصناف التي تستحق هذه الفريضة ويعود إليها النفع قال تعالى: ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ٦٠]، وهذه الفريضة واجبة على كل مسلم يستوي فيها الرجال والنساء. وبهذه الفريضة تنظم حركة المال في المجتمع المسلم فهي قربة إلى الله أولاً وقانوناً اقتصادياً لإشعار شرائح المجتمع الأخرى والتي تعاني أنواعاً من الحاجة، ويضاف إلى ذلك حكمة أخرى ألا وهي تفتيت الثروة؛ لكي لا تتراكم في يد واحدة، فضلاً عن أن هذه الفريضة ستجعل الفرد يحرص على تنمية المال؛ لكيلا تأكله الزكاة وهذا يولد تشجيعاً على الاستثمار للمال وتنميته بدل كنزه وتعطيله.

وبهذا التشريع لهذه الفريضة تتحقق كل الحِكَم التي ذكرت، ولأن هذه الشرائح الاجتماعية التي نصت عليها الآية هي نفسها التي يشملها النشاط الاجتماعي، والمنافع التي تشملها الرعاية والخدمات الاجتماعية تعمُّ الشرائح جميعها، أو تدمج بعضها في بعض، أو يرجى وصول النفع إلى كل شريحة بحسب الأولويات، ولكي تبقى شريحة في (سبيل ا لله) تتسع لكثير من الأنشطة الإغاثية الخاصة والعامة، أو تعم الأفراد أو المؤسسات المتنوعة ذات النفع العام. كل ذلك لتسرّ الحاجة، وتكفي المؤنة، وتخفف الآلام، وتحفظ الكرامة وتحمي المجتمع

من الانحرافات والجرائم[1].

وأما الصدقات الطوعية فهي تذكر تحت مصطلح الإنفاق بمفهومه العام، فتدخل هي والصدقة المفروضة (الزكاة) تحت نفس المصطلح (الصدقات) وتفرد أحياناً بلفظ (الصدقة)[2].

وقد حث القرآن الكريم على الإنفاق في سبيل الله في قوله تعالى: ﴿مَّثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّئَةُ حَبَّةٍ وَاللّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ﴾ [البقرة:٢٦١].

وقوله تعالى: ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللّهِ وَتَثْبِيتاً مِّنْ أَنْفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ وَاللّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [البقرة:٢٦٥].

وحذّر تعالى من إبطال القصد المبتغى من الإنفاق؛ لأنه عبادة مالية فيفسده ما يفسد العبادات. قال تعالى: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تُبْطِلُواْ صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ وَالأَذَى كَالَّذِي يُنفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلاَ يُؤْمِنُ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْداً لاَّ يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُواْ وَاللّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة:٢٦٤].

---

(١) انظر سليمان بن علي، ((تنمية الموارد البشرية والمالية))، (ص٣٠).

(٢) انظر، إبراهيم محمد الضبيعي، ((الصدقات وأثرها على الفرد والمجتمع))، مطبعة الوطن - الرياض، (١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م)، ط١،

* **الصدقات الطوعية:**

وقد حث رسول الله ﷺ على الصدقة الطوعية بقوله: (على كل مسلم صدقة قال: أرأيت إن لم يجد؟ قال: يعمل بيديه فينفع نفسه ويتصدق. قال: أرأيت إن لم يستطع؟ قال: يعين ذا الحاجة الملهوف. قال: أرأيت إن لم يستطع؟ قال: يأمر بالمعروف، أو الخير، قال: أرأيت إن لم يفعل؟ قال: يمسك عن الشر فإنها صدقة)[1].

وورد في صحيح الإمام مسلم: قال رسول ا لله ﷺ (إذا مات الإنسان انقطع عمله إلا من ثلاث: إلا من صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له)[2].

ومن الموارد الطوعية الأخرى لتمويل المشروعات الخيرية:

١- الوصية: «تمليك مضاف إلى ما بعد الموت على سبيل التبرع عيناً كان أو منفعة، أي سواء كان الموصى به عيناً كالدار أو منفعة كالسكنى فيها. «أي سواء كان الموصى به عيناً كالدار، أو منفعة كالسكنى[3]. وقد شرعت لقوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْراً الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقّاً عَلَى الْمُتَّقِينَ * فَمَن بَدَّلَهُ بَعْدَمَا سَمِعَهُ فَإِنَّمَا إِثْمُهُ عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ١٨٠، ١٨١].

وقوله ﷺ: (ما حق امرئٍ مسلم له شيء يوصي فيه يبيت ليلته إلا ووصيته مكتوبة عنده)[4].

(١) البخاري، «الجامع الصحيح»، كتاب الآداب، باب كل معروف صدقة، (٨/٢٠).

(٢) مسلم، شرح النووي على مسلم، (١١/٨٦).

(٣) انظر استاذنا الدكتور عبدالكريم زيدان، «المفصل في أحكام المرأة والبيت المسلم»، (١٠/ ٣٨١)؛ وانظر د. محمد رواس قلعجي، معجم لغة الفقهاء، (٥٠٤).

(٤) البخاري، (٥/٣٣٥)؛ ومسلم، (١١/٧٤).

وتشريع الوصية باب فتحه الله للخير ليستدرك من فاته فعل الخيرات أو قصر ولتكون خاتمة أعماله فعل الخير والقربات[1].

٢- الوقف [الصدقة الجارية]: «حبس مال يمكن الانتفاع به مع بقاء عينه بقطع التصرف في رقبته على مصرف مباح موجود»[2].

أو هو «حبس العين على حكم ملك الله تعالى على وجه تعود منفعته إلى العباد، فيلتزم ولا يباع ولا يوهب ولا يورث»[3].

والعمدة في دليل الوقف الحديث الذي رواه الإمامان البخاري[4] ومسلم[5] عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه أصاب أرضاً بخيبر فأتى النبي ﷺ يستأمره فيها فقال: يا رسول الله، إني أصبتُ أرضاً بخيبر لم أصب مالاً قط أنفس عندي منه فما تأمرني به؟ قال: (إن شئت حبست أصلها وتصدقت بها).

قال ابن عمر: فتصدق بها عمر أنه لا يباع ولا يوهب ولا يورث وتصدق بها في الفقراء وفي القربى، وفي الرقاب، وفي سبيل الله، وابن السبيل، والضعيف ولاحتاج من وليها أن يأكل منها بالمعروف ويطعم غير منمول.

قال النووي[6] في هذا الحديث: «في هذا الحديث دليل على أصل الوقف».

وقال جابر بن عبدالله: «لم يكن أحد من أصحاب النبي ﷺ ذو مقدرة إلا وقف»[7].

---

(١) انظر الدكتور عبدالكريم زيدان، «المفصل»، (١٠/٣٨٣).

(٢) نفس المصدر، (١٠/٤٢٠).

(٣) نفس المصدر، (١٠/٤٢٠).

(٤) «الجامع الصحيح»، (٥/٣٥٤).

(٥) شرح صحيح مسلم، (١١/٨٦).

(٦) نفس المصدر السابق والصفحة.

(٧) ابن قدامة، «المغني»، (٢/٣٧٦).

ومن الأدلة المهمة في الوقف حديث (الصدقة الجارية) الذي أخرجه الإمام مسلم في صحيحه[1]: «والصدقة الجارية في هذا الحديث محمولة عند العلماء على الوقف لأن غيره من الصدقات ليست جارية بل يملك المتصدق عليه أعيانها ومنافعها»[2]، «وهذه الصدقة هي التي يدوم نفعها بعد موت صاحبها»[3].

والوقف مظهر من مظاهر البر والإحسان والتعارف على الخير، وفيه صلة الرحم ورعاية الذرية بعد موت معيلهم، وفي الوقف إسهام في إقامة وإدارة المؤسسات ذات النفع العام للمجتمع المسلم كالمساجد والمدارس والمستشفيات والمشروعات الخيرية وغيرها[4].

موارد طوعية أخرى:

وقد وسع الشارع جل وعلا في باب المندوبات والسنن في أعمال الخير مما يكون مردود ومنفعته المباشرة على الفقراء، من ذلك: الأضاحي والعقائق، والنذور، والكفارات، وبذلك نرى أن الشريعة تكفلت بكثير من المناسك والأحكام مما يكون فيه تحقيق العناية بالإنسان، وحفظه من أن يقع في ابتداع عقائدي أو شرعي، وإعطائه الطريقة التي يشكر بها مولاه.

دور المرأة في تمويل المشروعات الاجتماعية:

لم تتخلف المرأة المسلمة عن أداء دورها في الخدمة والرعاية الاجتماعية، ومن أنواع الأداء الذي أسهمت به في ذلك هو تمويل المشروعات والأنشطة التي تخدم

---

(١) انظر شرح النووي لصحيح مسلم، (١١/٨٥).

(٢) «المفصل»، استاذنا د. عبدالكريم زيدان، (١٠/٤٢١).

(٣) الشيخ يوسف القرضاوي، «مقدمة كتاب تنمية الموارد البشرية»، ط عالية في المنظمات الخيرية.

(٤) انظر أستاذنا عبدالكريم زيدان، «المفصل»، (١٠/٤٢١).

المجتمع المسلم. منطلقة من قاعدة الترغيب في الإنفاق في وجوه الخير التي فصلنا فيها سابقاً.

وتمويل المشروعات الاجتماعية كانت المرأة فيه أسرع من الرجل؛ لطبيعة تكوينها العاطفي وسرعة استجابتها للدوافع الإنسانية، «والدافع هنا: عبارة عن مؤثر قوي يدفع الكائن الحي إلى القيام بسلوك يرمي إلى تحقيق غرض محدد، وسرعة الاستجابة لها، ومن ثم تم اتخاذ السلوك الذي يؤدي إلى إشباعها»[1]، كما يعرفه الدكتور محمد عثمان الخشت.

لذلك كان للمرأة أثر عظيم في العمل الاجتماعي الخيري وجوانب الرعاية الاجتماعية المختلفة لما تتميز به المرأة بين بنات جنسها؛ لأنها أقدر على التعامل مع الأيتام والأرامل؛ لعاطفتها الجياشة وأحاسيسها المرهفة بالإضافة إلى قدرتها على التأثير والإقناع واستثارة العواطف، وتوظيفها لخدمة هذا المجال الحيوي[2]. ويصدق ذلك حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه يقول: كان رسول الله ﷺ يقول: (صدقوا ... تصدقوا وكان أكثر من يتصدق النساء)[3].

وأهم الموارد التي أسهمت فيها لتمويل المشروعات والأنشطة الاجتماعية هي:

١- الزكاة: المرأة مخاطبة بهذه العبادة مثلها مثل الرجل إذا كانت مالكة للنصاب،وقد كانت الصحابيات يسرعن في أداء هذه الفريضة، وقد تفردت عن الرجل بزكاة الحلي على قول البعض، وقد رجح استاذنا عبدالكريم زيدان[4] عدم

(١) انظر سليمان بن علي العلي، «تنمية الموارد البشرية»، ص٩٤.

(٢) انظر نفس المصدر بتصرف.

(٣) الإمام مسلم، «الصحيح، كتاب العيدين»، (٣/٢٠).

(٤) «المفصل في أحكام المرأة والبيت المسلم»، (١/٣٧٦).

وجوب الزكاة في الحلي الذي كان للاستعمال، وللتزين به قلّ أو كثر بحسب ما جرت العادة به.

ولكنه رجح وجوب الزكاة فيما كان للادخار لحاجات المستقبل «لأن الزكاة إنما اسقطت عما أعد من الحلي للاستعمال لصرفه عن جهة النماء... »[1].

وكانت كثير من النساء في عصر النبوة يُنفقن زكاتهنّ في مصارفها الشرعية، ومن ذلك جواز اعطاء الزوجة زكاتها لزوجها المتفرغ لطلب العلم، كما فعلت زينب زوجة عبدالله بن مسعود بعد سؤالها لرسول الله ﷺ عن جواز ذلك فقال ﷺ: (نعم، ولها أجران أجر القرابة وأجر الصدقة)[2].

وكانت السيدة زينب بنت جحش أم المؤمنين وصفها رسول الله ﷺ: بطول اليد لبذلها الصدقات والزكوات[3]، وإنفاقها في سبيل الله.

وكان رسول الله يستحث النساء لدفع الزكاة في المناسبات مثل صلاة العيد وغيرها. فكانت النساء يُبادرن من غير تأخير ولا بخل[4].

٢- الصدقات: وكانت الصدقات باباً واسعاً لتمويل كثير من أعمال الخير لخدمة المجتمع، منها الانفاق على الضيوف، وإنشاء بيوت الضيافة، كما فعلت الصحابية الجليلة أم شريك الأنصارية ووصفتها فاطمة بنت قيس بقولها: «امرأة غنية من الأنصار عظيمة النفقة في سبيل الله ينزل عليها الضيفان»[5].

---

(١) المصدر السابق، (٣٧٧/١).

(٢) البخاري، «الجامع»، (١٢٦/٢).

(٣) البخاري، نفس المصدر، (١١٥/٢).

(٤) نفس المصدر، (١١٩/٢، ١٢٦).

(٥) مسلم بن الحجاج، «الصحيح، كتاب الفتن وأشراط الساعة»، (٢٠٣/٨)؛ و«الإصابة»، (٤٦٥/٤).

وكذلك رملة بنت الحارث التي كانت تنفق نفقة عظيمة على بيت الضيافة الذي تنازلت عنه للدولة الإسلامية، وكان يستخدم لأغراض أخرى حسب رأي الدولة[1].

وأما السيدة عائشة فقد ضربت المثل في النفقة، فكانت تنفق الكوم من المال في سبيل الله وتنسى نفسها[2]، وكانت تنفق ما تجد حتى أنها لم تجد مرة غير تمرة واحدة، روى البخاري أن السيدة عائشة قالت: «دخلت على امرأة ومعها ابنتان لها تسأل فلم تجد عندي غير ثمرة فأعطيتها إليها قسَّمتها بين ابنتيها ولم تأكل منها ثم قامت فخرجت»[3].

والتهادي بين أفراد المجتمع ظاهرة اجتماعية في المجتمع المسلم حيث كانت المسلمات في الصدر الأول يتهادين بالطعام وغيره، وقد اخرج البخاري[4] حديثاً عن حفصة بنت سيرين عن أم عطية رضي الله عنها قالت: «بُعث إلى نسيبة شاة فارسلت إلى عائشة منها، قال النبي ﷺ: (عندكم شيء؟)، فقلت: لا، إلا ما أرسلت به نسيبة من تلك الشاة. فقال: (هات فقد بلغت محلّها) أي قُبلت عند الله.

وأتى النبي ﷺ بلحم فقالت عائشة: هذا ما تُصدق به على بَريرة، فقال: (هو لها صدقة ولنا هدية)[5].

بل وسع الإسلام باب الصدقات وأجاز رسول الله ﷺ المرأة أن تنفق من طعام

---

(١) «الإصابة»، (٣٠٥/٤)، وانظر الكتاني، «التراتيب الإدارية»، (٤٤٦/١).

(٢) انظر ابن الرسام الحنبلي الحموي، «نصيحة النساء»، رسالة دكتوراة تحقيق د. ليث سعود لم تطبع بعد، (ص٢٠٧- ٢٠٨)، وانظر ابن سعد، «الطبقات»، (٣٥٧/٨).

(٣) البخاري، «الجامع الصحيح»، (١١٥/٢).

(٤) نفس المصدر، (١٢١/٢).

(٥) نفس المصدر، (١٣٥/٢).

بيتها غير مفسدة، وبغير إذن زوجها فكان لها أجرها ولزوجها أجره[1].

٣- العقيقة: ومن الصدقات التبرع بالعقائق للمشروعات الخيرية، فعندما عقت السيدة فاطمة للحسن والحسين رضي الله عنهم وحلقت شعرهما في اليوم السابع، وفي كل مرة كانت تتصدق بوزن شعرهما ذهباً إلى أهل الصفّة المتفرغين؛ لطلب العلم إسهاماً منها في تشجيع هذه المؤسسة التعليمية التربوية الخيرية، وأخذ النبي ﷺ ذلك منها وأنفقه على أهل الصفة[2].

٤- العتق: وكان العتق من الأبواب الواسعة للإصلاح الاجتماعي؛ لمعالجة هذه المشكلة الاجتماعية وكانت الصحابيات يسهمن في هذا الجانب، وكانت السيدة عائشة تقوم بهذا العمل الاجتماعي، وممن أعتقتهم السيدة عائشة بريرة رضي الله عنها[3].

٥- الأوقاف: ومن الموارد التي أسهمت المرأة المسلمة فيها رصد الأوقاف؛ لتنمية المسلم اجتماعياً ومؤسسياً. وقد تعرضنا لتعريف الوقف في المقدمة، وكان نظام الوقف له آثارٌ عظيمة في المجتمع الإسلامي وبخاصة الجانب الاجتماعي والخدمي، وكان يمثل جانباً حضارياً تتميز به الحضارة الإسلامية يشهد؛ لإسهامات أفراد الأمة الإسلامية، في بناء المجتمع الإسلامي ويكشف عن حقيقة البناء النفسي في الفرد والمجتمع الذي تم من خلال منهج هذا الدين، حيث جعل الفرد يشعر بمسؤوليته في التنمية الاجتماعية.

وهو يفسح للفرد أنواعاً من أعمال الخير الايجابية مثل صلة الرحم، ورعاية

---

(١) نفس المصدر، (١١٩/٢، ١٢٠).

(٢) السخاري، ((رجحان الكفة في أخبار أهل الصفة))، ورقة (٥).

(٣) البخاري، ((الجامع الصحيح))، (١٣٥/٢).

الذرية بعد موت معيلهم ويسمى بالوقف الذري أي لمنفعة الذرية.

وهناك الوقف الخيري وهو ما جعل ريعه على جهة معينة، كإقامة المؤسسات ذات النفع العام، كالمدارس والجامعات والمستشفيات ودور الأيتام، ودور العجزة، أو الرفق بالحيوان فضلاً عن المؤسسات الدينية كالمساجد وما يتعلق بها(١).

وكما أوردنا سابقاً أن الوقف دل عليه عموم الكتاب، ودلت عليه عموم السنة النبوية القولية، وأكده فعل النبي ﷺ وعمل الصحابة رضي الله عنهم، وعمل التابعين، وقد فعله رسول الله ﷺ ورغّب به الصحابة، لما فيه من المصالح التي لا توجد في سائر الصدقات؛ فإن الإنسان ربما يصرف في سبيل الله مالاً كثيراً ثم يفنى، فتجدد الحاجة فتكون الصدقة أو الأمانة أو هذه الخدمة الاجتماعية وقتية تنتهي بانتهاء المال. وأما الوقف فإنه يضمن استمرار النفع وجريان التمويل النافع من خلال مؤسسات أو مشروعات نافعة لها مردود مستمر ثقافية أو علمية أو خيرية(٢).

وقد وعت الصحابيات دورهن في هذا الصدر الأول، وكانت السيدة حفصة أول مشرفة على الأوقاف، حيث ولاها عمر رضي الله عنه هذه المهمة بعد وفاته وكتب وصية بقوله(٣):

«هذا ما وصى به عبدالله عمر أمير المؤمنين إن حَدَثَ به حدَثُ الموت، أن ثمغاً، وصرمة بن الأكوع، والعبد الذي فيه، والمائة سهم الذي بخيبر ورقيقه الذي فيه، والمائة التي أطعمه محمد ﷺ بالوادي تليه حفصة ما عاشت، ثم توليه ذا الرأي من

---

(١) انظر أستاذنا الدكتور زيدان، «المفصل»، (١٠/٤٢٢)؛ الدكتور مصطفى السباعي، «من روائع حضارتنا».
(٢) انظر أستاذنا الدكتور زيدان، «المفصل»، (١٠/٤٢٢)؛ والإمام الدهلوي «حجة الله البالغة»، (٢/٦٦٨).
(٣) أبي الحسن الخزاعي التلمساني، «تخريج الدلالات السمعية»، (ص٥٧٣).

أهلها أن لا يباع ولا يشترى ينفقه حيث يرى، من السائل والمحروم وذي القربى، ولا حرج عليه، إن أكل أو آكل واشترى رقيقاً منه» وبالتالي فالسيدة حفصة أول امرأة تتولى ولاية الوقف.

وقد تطور هذا الجانب الحضاري في منهج هذا الدين، وكانت للنساء بعد ذلك صولة وجولة في الوقف وجوانبه مثل السيدة زبيدة زوجة هارون الرشيد التي لا تزال معالم أوقافها في طريق الحج من العراق إلى المدينة، وعين زبيدة في المدينة لسقاية الحجيج وغيرها من الأعمال النافعة للمجتمع المسلم[1].

وعصمة الدين خاتون زوجة السلطان نور الدين زنكي المعروفة بصلاحها وكثرة أعمال البر وإيقافها الأوقاف النافعة في أوجه الخير[2].

بعد هذا السرد والتحليل يتبين لنا دور المرأة المسلمة في العمل الاجتماعي رعاية وخدمة، سواء بالإسهام عن طريق فريضة الزكاة أو الإنفاق في سبيل الله بأنواعه التي ذكرناها، مما يدل على المشاركة المبكرة في النشاط الاجتماعي، وخدماته في ظل المنهج الرباني ومن خلال التأسي بالسيرة النبوية.

ثمرة دور المرأة في الخدمات الاجتماعية وعلاج البيئة:

من خلال ما عرضناه من الخبرة التاريخية ورصيدها في عصر النبوة يتبين لنا عظمة المنهج الرباني في تشريعه للجانب الاجتماعي، ورسم خطوطه الأساسية من خلال نموذج تطبيقي رائد وقدوة ألا وهو: العصر النبوي الذي جعله قدوة وأسوة لكل عصر بعده مع فتح باب التفريع والتنويع على الأصول في تطوير المؤسسات، وبين

---

(١) انظر ابن الرسام الحموي، ((نصيحة النساء))، تحقيق د. ليث سعود، (ص٣٥٩)

(٢) نفس المصدر، (٣٦٥-٣٦٦).

لنا كيف يكون دور المرأة في الإسهام الاجتماعي بمؤسساته ونشاطاته من غير ابتداع يخرم القيم والضوابط، وإنما ينمي ذلك كله في إطار متوازن تدركه المرأة المسلمة وتلتزم به التزام عبادة.

وتظهر لنا هذه الخبرة التاريخية أن الإسلام عندما يسعى إلى إعداد الإنسان الصالح لا يترك الناس حيارى يتخبطون، كل منهم يرسم الصورة على هواه، وإنما يحدد لهم مواصفات هذا الإنسان في دقة ووضوح، ويضع لهم المنهج الذي يصلون به إلى تحقيق الغاية...، وهي (العبادة)، ولكن العبادة ليست مقصورة على المناسك التعبدية المخصوصة، وإنما هي شاملة واسعة جداً بحيث تشمل دقائق الحياة وتفصيلها، وتشمل كل عمل، وكل فكرة، وكل شعور وتتجه بكل نشاط حيوي إلى الله مراعية في ذلك ما يرضي الله في هذا النشاط، فتجنبه ما يغضبه، وبذلك يصل النهج الإسلامي إلى إنسان تقي يعبد الله ويهتدي بهداه: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ بحيث يستمد هذا الإنسان من هذا الهدى منهج حياته، ومنهج سلوكه ولا يتلقى من مصدر سواه إلا في حدود الشروع.

ويظهر لنا البحث كذلك بواكير العمل المؤسسي في المجتمع الإسلامي، والذي حرم منه في بعض الحقب الزمنية، وبخاصة بعد سقوط الخلافة وهيمنة الغزوة الفكرية وانحراف المؤسسات في مجملها عن الخط الإسلامي الفكري والسلوكي، وبخاصة في المؤسسات الاجتماعية وبالأخص المؤسسات الاجتماعية النسائية التي تظن أنها جاءت بمبتكرات وإبداعات لا سابقة لها، وإن كان ذلك حاصل في بعض المظاهر، بل اتبعت فيها المستورد من الأفكار والسلوكيات شبراً بشبر وذراعاً بذراع حتى تجاوزت الحد، وتعدت حدود الله في المطالبة بتغير التشريعات المتعلقة بالمرأة أو بتهجينها بل وصل الأمر إلى مسخ الجبلّة، وإنسانية المرأة في محاولة إجازة

السحاق تحت خدعة حرية التصرف بالجسد، وحرية الزواج بالجنس الآخر ومؤتمر بكين وما سبقه وما لحقه لشاهد على ذلك.

فمن باب الضرورة أن يكون هناك عمل مؤسسي نسائي في الجوانب الاجتماعية يوظف طاقة المرأة المسلمة في المجتمع وخدمته من منظور إسلامي عقيدة وأداء.

وإسناد التجارب الناجحة، وضرورة تبادل الخبرات بين المؤسسات النسائية الإسلامية، وتعاونها في ذلك لتشجيع المبتدئة.

ويكشف البحث عن ضرورة الوقوف عند الضوابط الشرعية في تحديد حدود العمل النسائي المؤسسي والذي في أغلب صوره عملاً خيرياً واجتماعياً. وأن لا يكون مدخلاً لتمييع الالتزام تحت شعارات براقة باسم التطوير ومراعاة الواقع والتجديد في الاجتهاد مما يفقد المرأة حقيقتها وينقص من هيبتها وكرامتها.

وأسأله تعالى السداد والرشاد والقبول، ومستعداً لتلقي النصح للتصحيح من كل ناقد صريح للتعاون على بناء صرح شامخ على أساس صحيح، والحمد لله أولاً وآخراً.